نساء مضطهدات





موضي الزهراني

مؤسسة الانتشار العربي

موضي الزهراني

نساء مضطهدات





موضي الزهراني

نساء مضطهدات



ص.ب: 113/5752
E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت - لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

الغلاف من تصميم "وكالة التصميم الرقمي للدعاية والاعلان"
www.digitaldesignme.com

ISBN 978-614-404-154-3

الطبعة الأولى 2011

المحتويات

إهـداء 7

مقدمة 9

الفصل الأول: أنا حائرة.. كيف أرفض؟ 15

الجهل وحق الرجل في العنف 15

أوجه العنف الذي تتعرض له المرأة 18

لماذا ترضى المرأة بالعنف؟ 21

كيف نرفض الاستغلال؟ 25

الفصل الثاني: بائعة (بليلة) في حديقة عامة 29

التفسير النفسي 36

الفصل الثالث: أكذوبة «ضرب الحبيب مثل أكل الزبيب»! 41

التفسير النفسي 46

الفصل الرابع: خمسة وثلاثون عامًا من العناء 49

التفسير النفسي 53

الفصل الخامس: تنازل عن كرامة إنسان 57

التفسير النفسي 61

الفصل السادس: أطفال في مهب الريح 63

التفسير النفسي 70

الفصل السابع: كيف انتصرت المرأة الحرّة؟! 73

التفسير النفسي 78
الفصل الثامن: عزلة فتيات السطح 81
جريرة طفولة بعيدة 88
التفسير النفسي 92
الفصل التاسع: طفولة معذّبة 95
التفسير النفسي 105
الفصل العاشر: ضياع طفولة «وفاء» 107
التفسير النفسي 117
متى تحتاج المرأة إلى الحماية؟ 121
الجهات الحقوقية السعودية 125
باقات شكر متنوعة 133

إهــداء

- إلى كل أم لجأت إلى الصمت خوفًا أمام هضم حقوقها كإنسانة...
- إلى كل زوجة تلذذت لسنوات طويلة ضعفًا أمام اضطهاد زوجها لها...
- إلى كل أم تحجّر قلبها أمام تعذيب أطفالها مقابل خلاصها...
- إلى كل أم حاربت بكل ما أوتيت من قوة مقابل الفوز برعاية أطفالها...
- وإلى كل صاحب قرار يتردد في قول «كلمة حق» لنصرة من يستغيث به...
- وإلى كل من نبضت بداخله مشاعر الرحمة بصدق لكي يساعد ويحمي من أصابه داء ظلم العباد وقسوتهم...
- وإلى زوجي العادل بتعامله حيث منحني، وقت مرضه «شفاه الله»، أن أقدم لكم من خلال هذا الكتاب شخصيات غريبة من الرجال الظالمين بحق زوجاتهم.

موضي الزهراني

2010/10/10م

مقدمة

عندما تعاملت مع حالات العنف الأسري في وزارة الشؤون الاجتماعية السعودية بمنطقة الرياض منذ عام 2004م، كنت أقرأ وأسمع عن مجتمعات أجنبية وعربية انتشر فيها الانحراف السلوكي والعنف الأسري إلى درجة يقشعرّ منها بدني، لكن لم أتخيل بأنني سأجد في مجتمعنا نساء يتعايشن مع العنف كأنه جزء لا يتجزأ من طبيعة حياتهن! وأنني سأرى أمامي نساء يذرفن الدموع على حياتهن الماضية التي قد تتجاوز عشرات السنوات، وهن تحت سلطة الأذى النفسي وسيطرة الأذى الجسدي، ويبحثن عن حلول سريعة مع أزواجهن المسيطرين عليهن برضاهن الإرادي واللاإرادي، لكنهن قد يتنازلن وهن متألمات عن مطالبهن في لحظات أمام القاضي في المحكمة لأن أزواجهن نجحوا في استجداء عطفهن ورضاهن.

يتنازلن عن حقوقهن التي شرعها الله لهن لتحقيق حياة كريمة، لأن أزواجهن استطاعوا بمهارة ماكرة تمثيل تقديم الوعود بالتغير الذي قد يناسب مطالبهن البسيطة! وكنت أتألم فعلًا عندما ترفض إحداهن الحقيقة المفجعة لمعاناة سنوات مؤلمة عاشتها معه! لكنها في المقابل الآخر لاتستطيع رفض تقبل سلسلة وعوده الوهمية في لحظة

حساب أو تصالح داخل قاعات المحكمة! ولكنني علمت بعد ذلك من زوجات معذبات بأن السبب في ذلك يرتبط باحتمالات كثيرة، من بينها أنها قد تتعرض لموجة أخرى من الذل والإهانات بعدما ينتهي مفعول التحذير مع الزوج من قبل رجال الأمن أوالقضاء! أو قد يتفنن الزوج في تعذيبها نفسيًا وعاطفيًا لأنها تقدمت بشكوى ضده! أوقد يقوم بخطف الأب أطفالها والاختفاء بهم بعيدًا عنها بمسافات مدن، ويرسل إليها رسالة من خلال جهازه المحمول أو من خلال المحكمة، بأنها طالق وأن لا تفكر أبدًا بأن تسأل عن أطفالها! فتظل مكلومة أشد من تحملها لعذاباته المتنوعة بدرجاتها، وتظل تبكي بحرقة المقهور وتتمنى بأنها ظلت زوجة معذبة على أن تكون أمًا محرومة! فهناك من تظل تتهم القضاء والأمن ومراكز الحماية وحقوق الإنسان بالقصور، وأنهم السبب في حرمانها من أطفالها لأنهم شجّعوها على الخروج من عالمها المظلم إلى عالم لا تستطيع تحمله لوحدها! عالم لا ينتصر فيه إلا الرجل الظالم الذي لايراعي حرمات الله! لأنها بالمقام الأول «امرأة» لن تتحمل إجراءات الشكاوى الروتينية من مركز أمني لآخر، ومن محكمة إلى أخرى، ولن تتحمل إجراءات المحاكمة والجلسات التي قد تطول مددها لشهور وهي مازالت محرومة من أطفالها! ولن تستطيع تحمّل نفقات رجال القانون والمحاماة الذين قد يستغلون ضعفها بمساومتها في أمور أسوأ خاصة عندما لا تملك مصدر رزق خاصًا بها، وأسرتها ترفض مساندتها ماديًا لكي تفوز بحضانة أطفالها! فهي لا يهمها كيف تعذبت كزوجة

لسنوات، وكيف عاشت ذلًا كأم أمام أطفالها! وكيف تحملت أن تظل معزولة عن العالم الإنساني من حولها برضاها، لأنها تعتقد بأن ما يقوم به زوجها واجب زوجي متعارف عليه ولا يحق لها الاعتراض أو الشكوى، أو لأنها قد تربت منذ طفولتها على أن الرجل هو المسيطر والمرأة عليها السمع والطاعة، خاصة أنها لا تنسى دور والدتها تجاه والدها ورأسها المطأطئ للأرض وعباراتها التي ترددها أمامه خاضعة وخائفة بقولها: «أبشر، أنت تآمر، على رأسي، القول قولك... الخ» من العبارات التي زرعت بداخلها الاستسلام لأوامر الرجل ولزوجها «خاصة» لأنه مهما بدر منه من عذابات مختلفة، فإنها ستتحمل جميع تلك الآلام مقابل أن لا تخسر أطفالها!

والمؤلم في الوضع كله، بأن هذه النماذج المسلوبة والمأمورة في عاطفتها وإرادتها وجسدها لم تكن حصرًا على طبقة اجتماعية معينة، أو مرتبطة بمستوى تعليمي منخفض، أو بفئة جاهلة بحقوقها وكيف تدافع عنها، لأنها غالبًا تقع في حيرة من أمرها! ولمن تلجأ إلى المراكز الأمنية قبل أن تستفحل مشكلتها وتكون في عداد الأموات نفسيًا أو جسديًا! أو إلى الجهات الحقوقية لكي ترشدها وتقدم لها النصح بكيفية المطالبة بحقوقها والدفاع عنها، أو إلى قاعات المحاكم عندما تنتهي بها الطرق المظلمة إلى طريق لابد أن تتجاوزه كي تنقذ ما تبقى من حياتها لإنقاذه! لأنه من خلال سلسلة تلك النماذج المحزنة والمظلومة التي تعاملتُ معها واجهتُ الطبيبة الجائرة بكيفية التخلص من زوج غيور، والزوجة المسنة الأمية في تعليمها التي عاشت

أعوامًا طويلة تحت الذل والمهانة مقابل أن لا تكون مطلقة، وأن لا تخسر أطفالها!، لكنها عندما شارفت الخمسين انتفضت ثائرة راغبة في الخلاص من زوج ظالم، لكن للأسف بعدما أنتجت نتاجًا بشريًا مختلًا عقليًا ونفسيًا وجسديًا نتيجة للتعذيب الذي تواجهه والدته كل يوم! وتلك الزوجة البسيطة الجاهلة بالحياة من حولها والمحرومة من أي مصدر مادي يبعدها عن مذلة السؤال لزوج عدواني بخيل أدخلها دائرة التسول كل يوم! أو تلك الفتاة التي ارتضت أن تعيش حبيسة لأكثر من عشر سنوات فوق سطح منزل أخيها غير الشقيق مع إخوتها ووالدها المسن عقابًا لها على علاقة عابرة مع رجل كانت فيه ضحية من الدرجة الأولى!

تلك النماذج التي سأقدمها لكم عشت معها لحظات الحزن والألم والخوف من قدرتها على مواجهة الخصم حتى النهاية، والتردد في استمرارية الشكوى خوفًا من الفشل في كسب حقوقها المشروعة التي أقرّها لها الخالق سبحانه وتعالى، لكن المخلوق سلبها منها بجبروته وظلمه وساديته. عشت مع بعض تلك النماذج لسنوات ومازلت خاصة بعدما عشن لحظات نشوة الانتصار التي لم يذقن طعمها إلا بعد مراحل طويلة من التشجيع تم تدريبهن عليها، وذلك بهدف تعزيز القدرة بداخلهن على التمسك بحقوقهن، وعدم الصمت القاتل عن الانتصار لكرامتهن وإنسانيتهن، فكانت أيامًا مؤلمة ومحاولات متعبة قد تصل بنا إلى قاع الفشل في لحظات ثم تعلو بنا نحو القمة في لحظات اقترابنا من النجاح والوصول إلى الهدف!

والمؤلم أنهن جميعهن - بدون استثناء - تعرضن للاستغلال من الرجل، لأنهن ارتضين لأنفسهن ذلك لسنوات طويلة، فكان من الصعب عليهن خلع عباءة الاستسلام للآخر عن أجسادهن مهما كان عدائيًا لهن في أيام أو حتى شهورا لذلك تطلّب تأهيلهن للتمسك بدعواهن ضد الطرف الآخر إجراءات كثيرة ساعدتهن على تقبل وضعهن الجديد ألا وهو «مخاصمة العدو وليس مهادنته» والتحرر من سيطرته النفسية قبل الجسدية!

الفصل الأول

أنا حائرة.. كيف أرفض؟

الجهل وحق الرجل في العنف

تتعرض كثير من النساء إلى درجات مختلفة من العنف الواقع عليهن من المقربين لهن داخل الأسرة من الذكور، وهذا الاختلاف في درجة العنف يختلف تبعًا لاختلاف الدافع لممارسة ذلك العنف من قبل المعتدي عليها، فالمعتدي قد يتعرض لظروف خارجة عن إرادته تدفعه للاعتداء على زوجته أو أولاده سواء كان ذلك الاعتداء جسديًا أو نفسيًا أو جنسيًا، لكن عندما يتم إهمال الدافع المؤدي إلى الاعتداء قد تتطور الحالة للأسوأ ويظل العنف واقعًا لفترات طويلة!

وسأذكر مجموعة من تلك الدوافع النفسية التي تكون سببًا لإيذاء الآخرين، والتي بإمكان المتعرض للإيذاء أن يدركها عندما تسيطر على الطرف المعتدي وذلك للعمل على معالجتها أو الحد منها، **ومن تلك الدوافع:**

- عدم القدرة على التعبير عن مشاعر الغضب والألم

مما يؤدي إلى كبتها وانعكاسها على لغة الجسد والقيام بإظهارها بلغة عدوانية ضد الآخر.

- القصور في التربية مما يؤدي إلى افتقاد لغة حوار متفاهم راقية، حيث يلجأ المحروم من التفاهم إلى أساليب غير إنسانية مع الطرف المقابل.

- الإصابة بأمراض نفسية قد تدفع المريض لعدم تحمل الطرف الآخر سواء كان زوجة أو أطفالًا، وتزيد حالته سوءًا عندما يفتقد المساندة الاجتماعية والنفسية من المقربين منه وبالذات «الزوجة» مما يؤدي إلى ازدياد سوء التفاهم بينهما وقد يتطور بذلك إلى لغة جسد عنيفة.

- إدمان المخدرات والمشروبات الكحولية التي تفقد الإنسان توازنه العقلي والنفسي للتعامل مع المشكلات بطريقة صحيحة.

- الفروق القوية بين الزوجين سواء كان ذلك في المستوى العمري أو الثقافي أو المادي مما يؤدي إلى اتساع الهوّة بينهما، واتساع دائرة الخلاف ومزيد من احتمال العنف.

- ضعف الوازع الديني لدى كثير من المعتدين على زوجاتهم، حيث يتعاملون مع المرأة كجسد من

حقهم امتلاكه متى ما رغبوا في ذلك، وتجريدها من حقوقها التي كفلها لها الدين الإسلامي.

- العادات والتقاليد البالية وغير المنطقية في التعامل مع المرأة بأساليب العنف التي تؤصّلها التربية الخاطئة في الرجل والمرأة في آن واحد، حيث نجد كثيرًا من الزوجات يرتضين لأنفسهن العنف الواقع عليهن ويعتبرنه حقًا من حقوق الزوج عليهن لأن الزوج هو الرجل الوحيد المتصرف في حياتهن!
- عجز النظام: إن معظم الرجال المعتدين على نسائهم على المستوى العالمي عمومًا، والعربي خصوصًا يجدون في عدم ثبات تطبيق العقوبات الرادعة لهم، وفي عدم الالتزام بما نصت عليه الشريعة الإسلامية في رفع الظلم عن النساء وأطفالهن، وفي تهاون النظام الأمني والحقوقي تجاه مطالب النساء بالحماية دافعًا قويًا لاستمرار عنفهم، وأيضًا لتكراره بعد تطبيق تلك العقوبات البسيطة بحقهم في حال توجهت المرأة المتضررة بالمطالبة بحمايتها ورفع الأذى عنها!.

أوجه العنف
الذي تتعرض له المرأة

يرتبط العنف الموجه ضد المرأة دومًا بنوعية علاقتها بالرجل أيًا كانت درجة قرابته لها، وخاصة «الزوج» لأنه يعتبر عاطفيًا من أقرب النماذج الذكورية لها، والذي تتوقع منه أن يكون مصدرًا للأمان النفسي والعاطفي والاستقرار الأسري الذي تنشده، لذلك عندما تسوء علاقتها به فإن سوء المعاملة الصادرة منه تكون أشد وقعًا عليها مما لو صدرت من طرف ذكوري آخر كمثل «الأب، أو الأخ، أو الابن»! حيث تعاني كثير من النساء إلى أخرى علاقتها مع الرجل القائمة على السلطة والسيطرة وإن كانت تختلف تلك المعاناة من امرأة إلى أخرى تبعًا لاختلاف القاعدة التربوية التي نشأت عليها في صغرها، وما تحمله تلك القاعدة من نماذج هامة في الحياة تتمثل في «العلاقة الأساسية بين الأبوين».

وسوف أستعرض صورًا من السلطة قد تكون مألوفة لدى الأوساط الاجتماعية التي لاتشعر المرأة فيها بأية قيمة معنوية لوجودها، لكنها قد تكون مستنكرة لدى الأوساط الأخرى التي تؤكد أحقية المرأة في حياة كريمة ومستقرة ومن هذه الصور: -

1 ـ **الإيذاء النفسي**: هذا النوع من الإيذاء لايمكن قياسه في كثير من البيوت على مستوى العالم، وخاصة عندما تكون العلاقة بين الزوجين علاقة غير مستقرة، أوعندما يشوب العلاقة بين أفراد الأسرة الاضطراب والتسلط والمشاحنات! فتصبح العلاقة مع المرأة قائمة على التحقير وتوجيه عبارات اللوم لها والإذلال، لكي تشعر بالنقص أكثر، واستخدام الحيل المختلفة لخداعها وتشكيكها في قدراتها العقلية.

2 ـ **الإيذاء الجسدي**: وهذا النوع من الإيذاء تختلف درجات وقعه على نفسية المرأة وجسدها وذلك تبعًا لاختلاف شدته، وتبعًا لاختلاف علاقة المرأة بالرجل المعتدي عليها، فهناك زوجات يتعايشن مع اعتداء أزواجهن عليهن جسديًا بشكل مستمر وذلك باسم الحب المريض، وهناك من ترفض أبسط درجاته وهذا بلا شك يرتبط بقناعات الزوجة بنوعية وقيمة العلاقة الزوجية!.

3 ـ **الترهيب**: ويتمثل في إخافتها بشكل مستمر من خلال استخدام عبارات الشتم والصراخ وتحطيم أثاث المنزل وأشيائها الخاصة، واستخدام الألفاظ النابية التي تقلل من شأنها أمام الآخرين وخصوصاً أبناءها.

4 ـ **التهديد**: ويتمثل في استخدام تهديدات مختلفة تؤثر

في إحساسها بالأمان النفسي والعاطفي، وتؤذي مشاعرها وخاصة عندما يتم تنفيذ هذه التهديدات كمثل «تهديدها بإيقافها عن عملها أو استكمال دراستها، وتهديدها بأخذ أطفالها أو حرمانها منهم لفترات طويلة»، أو تهديدها بالطلاق وسلب حقوقها الشرعية!.

5 ـ **الإيذاء الجنسي**: الإساءة إلى جسدها بإجبارها على ممارسة الجنس بدون رغبتها وتحت الضغط والإجبار وذلك باستخدام القوة الجسدية التي تشعرها بالإهانة والاحتقار لها كزوجة لها حق المعاشرة الجنسية بالحسنى!

6 ـ **العزل**: استخدام الأساليب الضاغطة للسيطرة والرقابة على تصرفاتها داخل المنزل وخارجه ويكون ذلك من خلال الرقابة المركزة عليها فيما يتعلق أين تذهب؟ ومع من تتحدث؟ وماذا تشاهد؟ وماذا تقرأ! وغيرها من الممارسات اليومية العازلة لحريتها الداخلية والخارجية!.

لماذا ترضى المرأة بالعنف؟

كثير من النساء العربيات يرتضين البقاء في علاقة العنف الزوجية لسنوات طويلة ويتكيفن مع صوره المختلفة من حيث أنواعه سواء كان جسديًا أو نفسيًا أو جنسيًا، وذلك لأسباب تختلف من امرأة إلى أخرى تبعًا لاختلاف مستواهن الاجتماعي أو العلمي أو الثقافي وأيضًا المادي! فالزوجة التي عاشت طفولتها حياة أسرية معنفة بين أبوين لا يجدان إلا لغة الجسد العنيفة وسيلة للتفاهم بينهما، نجدها تصبر لسنوات طويلة على زوج عنيف لا يجد سوى لغة العنف الجسدي أو اللفظي للتفاهم معها سواء عند الاختلاف في وجهات النظر، أو عند المطالبة بالحقوق المهمشة، أو حتى عند ممارسة العلاقة الزوجية مما يزيد الوضع النفسي للزوجة سوءًا، لكنها بالمقابل تفضل الصبر والتظاهر بالتحمل أمام أسرتها خوفًا من الطلاق الذي قد يجردها من أبسط حقوقها كأم تخسر حضانة أطفالها، أو كمطلقة لا ترحمها ردود أفعال المجتمع تجاه وضعها بعدما تحررت من الارتباط من زوج ظالم! والمرأة عندما ترضى بالتهاون في رفع الظلم عنها يكون ذلك بسبب استسلامها لشبكة من الضغوط الاجتماعية تؤدي إلى انعزالها عن المجتمع المحيط بها، مما يسبب ابتعادها كثيرًا عن معرفة

كيفية المطالبة بإنصافها ورفع الأذى عنها، وقد تظل بعض النساء على حالهن حتى يبلغن من العمر مبلغًا يسبب استنكار من حولها عندما تطالب بإنصافها، والرأفة بوضعها نتيجة لما عاشته طوال سنوات ملأى بالتعاسة. ويكون من الصعب في أيام أو شهور ترميم ذلك الصدأ الذي كسا حياتها، ومعالجة أوجاع أعوام ليست بالقصيرة! بل قد يؤدي بها الحال إلى تبريرات لما مرت به من ظروف صعبة دفاعًا عن ضعفها الذي عاشته لسنوات من عمرها! وكثيرًا ما تحاول «المرأة» ضحية الاعتداء التخلص من «المعتدي» عليها، لكنها غالبًا ما تفشل وذلك لقيام «المعتدي» بمحاولة البحث عنها ومطاردتها في كل مكان، ومعاقبتها على الهروب منه بعنف أشد!!

لذلك قد يلجأ كثير منهن إلى الصمت ويصبحن مريضات بمرض «العجز المكتسب» الذي يكون من أهم أعراض المرأة ضحية العنف وذلك لتعرضها لسلسة من الاعتداءات التي تقابلها بالصمت! خاصة عندما تمر بمراحل مختلفة في علاقتها بالطرف المعتدي عليها الذي ينتقل بالعنف الواقع عليها من مرحلة إلى أخرى، فأحيانًا تعيش في مرحلة من التوتر والترقب، وأحيانًا ينتقل بها إلى مرحلة العنف، أو مرحلة لازدياد العنف، وأخيرًا ينتقل بها إلى مرحلة المسامحة والغفران التي تكون فيها ضحية مرة أخرى لخديعة من الطرف المعتدي، الذي طالما يكرر اعتداءاته على ضحيته المخدوعة به لسنوات طويلة!

لذلك فإن كثيرًا من النساء المعنّفات يدخلن دورة العنف التي لا يستطعن التخلص منها بسهولة حيث تبدأ الدورة من:

- **مرحلة التوتر**: وتبدأ مرحلة التوتر بمشكلة أو خلاف بين الطرفين ويكون الطرف الأقوى هو المسيطر على الموقف مما يؤدي إلى مشاحنات وانقطاع للحوار بين الطرفين، وتحاول المرأة هنا تهدئة الوضع باعتبارها الطرف الأضعف.
- **مرحلة الترقب**: أما هذه المرحلة يكون الطرف الأضعف خائفًا من كل أمر قد يغضب الطرف الأقوى الذي يكون باستمرار سريع التهيج والاستثارة مما يؤدي غالبًا إلى انفجار المرحلة بشكل مؤذٍ للطرف الأضعف «المرأة»، حيث تظل تحت سيطرة مشاعر سلبية تساهم في تبدل نظرتها إلى المعتدي عليها وانشغالها الدائم به، وتبدل علاقتها بالآخرين حيث تصبح تميل للعزلة والانسحاب والفشل في حماية الذات، بل تتبدل قدرتها على التحكم في مشاعرها وتميل للرغبة في الانتحار، وكبت الغضب، وإيذاء من حولها «الأضعف منها» خاصة الأطفال!
- **مرحلة الانفجار**: وهذه تعتبر مرحلة الإيذاء للطرف الأضعف لوقوع الأذى عليه مباشرة ويترك أثرًا نفسيًا

أو جسديًا ملموسًا وواضحًا عليه، خاصة عندما يقرر هذا الطرف الأضعف «المرأة» الابتعاد فيصبح الاعتداء عليه أفظع من الطرف الأقوى «الرجل»!

- **مرحلة التهدئة**: خلال هذه المرحلة يشعر المعتدي بالندم في فترة ما، وعادة يتصرف كأن شيئًا لم يحدث لخوفه من خسارة الطرف الأضعف «المرأة» ويقوم بتذكيرها بالأيام الجميلة السابقة بينهما مما يدخلها مرحلة من التراجع ولوم الذات ونسيان الألم الواقع عليها، وكثير من الرجال باعتبارهم يمثلون الطرف الأقوى لايتحملون ابتعاد زوجاتهم عنهم بالرغم من مبرراتهم العديدة لاعتداءاتهم المستمرة عليهن!

- **مرحلة المصالحة**: قد تحدث هذه المرحلة وقد لا تحدث بين الزوجين مثلًا والحياة بينهما قد تستمر والضغوط مستمرة، لكن قد يتراضى الطرفان وبشروط للمصالحة وذلك عندما يتوقف الطرف الأقوى عن الإيذاء أو يقلل من درجته الواقعة على الطرف الأضعف الذي يعيش معه تحت سقف واحد.

هذه المرحلة قد تكون بداية لحياة جديدة إذا التزم الطرف الأقوى بعدم لوم الطرف الأضعف بأنه السبب في عنفه وشدته معه، وعندما يلتزم الطرف الأضعف «المرأة» بأنها لابد أن تسعى للدفاع عن حقوقها وأن لا ترضى بالأذى الواقع عليها.

كيف نرفض الاستغلال؟

لابد أن نعرف بأن كل إنسان منا يتعرض للاستغلال بدرجات تختلف تبعًا لاختلاف قوة أو ضعف شخصيته، وتبعًا لاختلاف مكانته الاجتماعية أو المادية والأسرية طبعًا، وحتى الأهداف من ذلك الاستغلال تختلف في استمرارها وتطورها أو تتوقف بتوقف الهدف الأساسي منها، ولكن هناك من يُستغل برضاه، وهناك من يُستغل وهو في غفلة من ذلك، وفي كلتا الحالتين قد يكون المستغل ضحية طوال سنوات عطائه وهو لا يعلم، أو يكون بطلًا في نظر الآخرين لأنه يتحمل هذا الاستغلال منعًا لخسارة من يحبهم! ولكنه قد يصحو من حلمه وقواه الجسدية والنفسية تعلن فشل الاستمرار، وعدم القدرة على الاستسلام للعطاء بدون شكر أو تقدير!

ومن أجل ذلك لابد أن نعرف كيف نرفض الاستغلال من بداياته البسيطة حتى لا يتطور بمرور سنوات الطاعة العمياء إلى استهلاك بشري مؤذٍ يتطور إلى التلذذ بالتعذيب من الطرف الآخر. وبداية ذلك الرفض يكون من خلال معرفة نقاط الضعف في الشخصية، فكلما استطاعت المرأة أن تعرف ما هي نقاط ضعفها وما هي نقاط القوة في شخصيتها، تكون قدرتها على مواجهة المواقف الصعبة

والأزمات من حولها قوية، واستطاعت أن تشد بنفسها من النزول إلى القاع المظلم وأن تظهر بقوتها المطلوبة للنور، وأن تنطلق في المطالبة بحقوقها من قاعدة قوية لاتخشى من ورائها خسارة اجتماعية أو مادية.

وكل شخص مستغل من طرف آخر من البديهي أن يكون عرضةً للقلق والاكتئاب والإحباط والنظرة الدونية إلى ذاته ولومها باستمرار بعبارة «لماذا أنا هكذا»؟ ويشعر بالحيرة كيف يرفض هذا الاستغلال الذي قد يتطور لدرجة من الإيذاء الجسدي والنفسي والجنسي وتنتابه كثيرًا حالات من الشعور بالغضب والكره لنفسه ولمن حوله، وقد لا يستطيع التنفيس عن تلك المشاعر السلبية إلا على من هم أضعف منه! وفي حالات كثيرة من النساء يتم توجيه غضبهن على أجساد أطفالهن لأنهم الطرف الأضعف فيصبحون ضحية أخرى تحت مظلة الاستغلال! خاصة أن تلك النماذج من النساء لا تستطيع تغيير الشخص المستغل لها بمجرد أنها تعاتبه أو تلومه على تصرفاته معها أو مع أطفالها، لأنه لا يهتم بما تقول أو بمشاعرها الحزينة تجاه وضعها وتجاه حياتها معه، فهو لا يملك إلا هدفًا واحدًا معها ألا وهو «استغلالها». بما تعنيه تلك الكلمة من إلغاء لآدمية الطرف الآخر! ولن يتوقف هذا الوضع إلا عندما تتوقف كل امرأة عن مكافأة تلك النماذج المؤذية لها عندما تستسلم لها وتستجيب لتهديداتها، وبذلك يكون التغيير موجهًا لداخلها وليس لداخل الطرف الآخر.

ومن خلال الحالات التي ستقرؤونها لابد أن تصلكم رسالة عن أنواع الشخصيات التي تمارس العنف، وتلك الشخصيات التي ترضى به بالرغم من تألمها من العنف الواقع عليها لسنوات طويلة، ورسالة تؤكد كيف نرفض الاستغلال بأنواعه ومن أي شخص سواء أكان مقربًا لنا عاطفيًا أو اجتماعيًا، أم شخصًا عابرًا بعلاقته الاجتماعية بنا لكنها قائمة لديه على الاستغلال الموجه ضدنا! حيث لابد أن نرفض ذلك الاستغلال مهما كانت النتائج. وأن نخطط كيف نعيش حياتنا في جو عادل لا يضعنا باستمرار في كفة الضحية الجاهلة بحقوقها واحتياجاتها كإنسان كفل له خالقه كرامته، وأكد له دينه الحفاظ على آدميته قبل الحفاظ على مكانته الاجتماعية أو الوظيفية أو المالية!

.

الفصل الثاني

بائعة (بليلة) في حديقة عامة

لم تكن تعلم «زينب» أن زواجها من رجل أجنبي عن بلدها، ولهجتها، سيدخلها متاهات من الحياة البائسة! وأن رفضها الارتباط بأبناء عائلتها البسيطة بحثًا عن زوج ثري سيجر عليها ويلات الغربة وحرمانها من أسرتها لسنوات طويلة! وحرمانها من التمتع بحياة الأثرياء كما كانت تعتقد عندما وافقت على الزواج من «عمار»، حيث اكتشفت بمجرد مرور أشهر بسيطة أن حياتها في «عزبة» تعج بالأبقار، وروائح المياه الراكدة أفضل من حياتها في شقة مظلمة صغيرة من شقق مدينة الرياض!

هربت زينب من حياة قريتها الفقيرة، ووافقت على الزواج من عمار لإعجابها بجماله وشبابه، وبمركزه الوظيفي في مؤسسة مالية مشهورة في بلده، فرحت كثيرًا بخطبته لها ولم تسأل نفسها لماذا لم يتزوج من بنات عائلته، أو بنات بلده! لأن الفرحة بتحقيق حلمها بالزواج من رجل ثري أنستها أهمية هذا السؤال، لأنه يكفيها بأن أحلامها ستتحقق عما قريب!

ومع أول صدمة واجهتها «زينب» عندما عاشت أيام زواجها الأولى في شقة صغيرة ذات فرش قديم، وبعد عشرة أيام «سجن» لم ترَ أحدًا من أسرة زوجها يباركون لها بالزواج، أو يدعونها لوليمة فاخرة تشعرها بترحيبهم بها، كما تمنت وتخيلت أثناء رحلتها القادمة إلى الرياض، ولم تتجول في شوارع الرياض الواسعة، أو مطاعمها العديدة المختلفة في مأكولاتها! أو مراكزها التجارية التي لا تعد ولا تحصى! حيث بدأت تدخل دوامة من الأسئلة المتعبة لتفكيرها البسيط!

فسألت عمار بعد أسبوعين من الروتين والملل: «لماذا لا نخرج ونتنزه، لقد اختنقت من الجلوس بين هذه الجدران الكئيبة؟». فأجابها إجابة سريعةً وغاضبةً «ما عندي استعداد، أنت عروس وعيب كثرة خروجك!».

تحملت «زينب» لمدة شهر آخر إحضاره للأكل من أحد المطاعم الشعبية الواقع أسفل العمارة التي يسكنون بها، ونومه بجانبها كجثة هامدة بعدما يشبع غريزته، ومتابعته للقنوات الفضائية، وتدخينه للسجائر طوال الليل حتى يغط في رحلة نوم عميقة، تظل بعدها مستيقظة بحزنها ودموعها طوال ليلها، حتى تهزها يده الجافة طالبًا منها تجهيز فطوره قبل ذهابه إلى العمل!

بعد شهور مضت ببطء دخلت زينب مرحلة جديدة وصعبة، ألا وهي مرحلة حملها الأول ومشاكله التي أرهقتها جسديًا ونفسيًا وتحملتها لوحدها بدون مساندة لا من والدتها التي تعيش بعيدة عنها، ولا من والدة زوجها التي لا تشعر

تجاهها بأية مودة، على الرغم من أنها هي من قامت بخطبتها لابنها المدلل كما كذبت عليها حينها، ولم تقل إنه إنسان مرفوض من أقاربه ومعارفه لأخلاقه وسوابقه التي اكتشفتها زينب بالتدريج!

وبعد سنوات عاشت تجربة الحمل الثاني والثالث وأوضاعها مع «عمار» تتغير تجاه الأسوأ، لأنها لا تمثل له أي قيمة كإنسانة يحترم مشاعرها ويرحمها من فراقها عن والدتها وبلدها، أو يساعدها على تربية أطفالها الصغار «الذين أرغموها على البقاء مع زوج لا يستخدم إلا يديه» كوسيلة للتفاهم والحوار معها!

- لقد ضربها أول مرة باستخدام يديه، لكنها سكتت أمام ذلك وتحملت لأنه زوجها الذي اختارته من خارج الحدود وغامرت بصغر سنها لتعيش في بلده الذي لا تعرف عنه إلا «اسمه الكبير»!

- وفي المرة الثانية رماها بحذائه على وجهها، ثم بصق عليها احتقارًا لها، وصمتت بألم!

- أما في المرة الثالثة فتطورت الأمور للأسوأ عندما استخدم زوجها «عقاله»، لأن يديه أصبحتا لا تكفيانه لكي تسكتها عن إزعاجها له بطلباتها اليومية، وصراخها في وجهه لأنه لا يلبي لها احتياجات المنزل والأطفال، وإهماله لها كزوجة وأم وشخص غريب عن هذه البلاد، فأصبحت من

معاملته السيئة لها كالمتسولة بإلحاح وذلك لكي يتصدق عليها بتفضّل بريالات يرميها في وجهها، أو يحنّ عليها بكلمة طيبة، أو يتكرم عليها بتناول الطعام معها بدون سب أو شتم أو ركل لها أمام أطفالها!

- أما في المرة الرابعة، والخامسة، وإلى ما لا نهاية أصبح جسد زينب خريطةً لعلامات وكدمات قديمة وحديثة العهد بجسدها المتهالك، فتلك كدمة بسبب ضربة عقال، وتلك خطوط سوداء بسبب ضربات عصا! وتلك بقع سوداء منتشرة مابين الفخذين والساعدين من ضربات يديه وقدميه وهو في حالة «اللاوعي»، بعد تعاطيه للحبوب المنشطة التي أدمنها وكانت سببًا في انقطاعه المتكرر عن عمله، فكان عقابه النقل إلى عمل آخر أقل راتبًا!

فأصبح عمّار يعاقب زينب كل يوم، ويتهمها بأنها سبب فشله في عمله، وفشله في علاقته بأسرته وأقاربه حتى أصبح الجميع لا يطيقونه! وأصبح ينظر إليها كنذير شؤم لابد من زواله أو الابتعاد عنه، أو بأضيق الحيل إهانته وتعذيبه حتى يكف أذاه عنه!

لكن حب زينب لأطفالها وخوفها عليهم طوال سنوات زواجها التعيسة، وخوفها من الطلاق الذي يهددها به زوجها كل يوم، وأن تسافر بعدها إلى بلدها مهزومة من

حياة زوجية فاشلة، هذا الخوف دفعها لكي تتحمل لسنوات تجاوزت «12» سنة... ولكن بعدما أيقنت أن تحملها أدى بها إلى مخاطر كبرى، رفعت سماعة الهاتف لتبحث عن جهة تساعدها على حل مشاكلها مع زوجها لعلها ترسو على مرفأ آمن!

عانت كثيرًا حتى حصلت على أرقام الجهات الاجتماعية والحقوقية، لأنها لا تعرف أحدًا يقف بجانبها، وبدأت اتصالها في اليوم التالي:

آلـو: قالتها بصوت خائف ومبحوح. سألت: هذا مكتب الدفاع عن المرأة المظلومة؟

أجابتها موظفة الاستقبال: نعم يا سيدتي، تفضلي ما هي مشكلتك؟

أجابت: أرجوكم، ساعدوني، ثم اختنقت كلماتها بدموعها!

تم تحويل المكالمة إلى مكتب الأخصائية الاجتماعية التي هدّأت من خوف «زينب» وشرحت لها دورهم كجهة رسمية خاصة بالدفاع عن حقوق النساء والأطفال المتعرضين للعنف من أسرهم، بعدها سألتها: «هل تستطيعين الحضور إلى مكتبي أم نزورك في منزلك للاطمئنان إلى وضعك؟».

فاختارت زينب زيارة الأخصائية لها في منزلها لأنها لا تملك ريالًا واحدًا لاستئجار سيارة للذهاب إلى مقرهم، ولا تستطيع الخروج بدون علم زوجها الذي لن يرحمها حين اكتشاف أمر خروجها بدون علمه.

** في اليوم التالي زارت الأخصائية زينب بعد التنسيق معها على الحضور بعد خروج زوجها إلى عمله، وكان من حسن حظها أنه ذهب مبكرًا، وأيضًا ذهاب أولادها الكبار إلى مدارسهم، وكانت حريصة على عدم وجودهم خوفًا من إخبار والدهم عن زيارة الأخصائية لوالدتهم، لأنهم أصبحوا جواسيس على تحركاتها واتصالاتها لمصلحة والدهم الذين يريدون كسبه بأية طريقة كانت، وذلك لاتقاء شره الواضح على أجسادهم الصغيرة!

وعندما رأت زينب أخصائيات الحماية أمامها انهارت، وسكبت دموعها، وأخذت ترتجف خوفًا من اكتشاف زوجها بأمر حضورهم، وبعدما هدّأت الأخصائيات من قلقها وأن دورهم مساعدتها وحل مشكلتها، هدأت قليلًا واطمأنت، وبدأت تتحدث في عجالة عن معاناتها لسنوات طويلة، وكشفت عن أجزاء من جسدها لكي تثبت لهم بأنها لا تتحدث أو تبكي من دون سبب، وتأكدت حينها بأنها دخلت مرحلة لا يستهان بها تتطلب منها الشجاعة وقوة المواجهة لتحديد مصيرها كزوجة وكأم، وذلك محاولة منها للانتصار لذاتها ولإنسانيتها، وحماية لأطفالها الذين أصبحوا نسخة مصغرة من العداء الذي يحمله والدهم بداخله!

لكنها ترددت كثيرًا في الإفصاح عن بيانات زوجها الشخصية كاملة، ترددت خوفًا من ورقة الطلاق التي ستكون مكافأتها بعد صبر دام (15) عامًا! ماذا ستفعل بها هل ستدور بها على الجمعيات الخيرية لكي تتبرع لها بوريقات

مالية بسيطة، أو بالتصدق عليها بمؤونة شهرية لن تكفيها حاجتها وأطفالها لشهر واحد! ومن تهديده اليومي لها بترحيلها عن البلاد بدون أطفالها، ولا تعلم بأن النظام يحميها ويمنحها الحق في البقاء مع أطفالها «لأنها أم قبل كل شيء» كما أفادتها الأخصائية بذلك.

لاحظت الأخصائية تردد زينب وخوفها المسيطرين على ملامح وجهها الهادئ، وعلى نبرات صوتها التي تتلاشى لدرجة الاختناق بدموعها! لكنها بدأت تطمئنها عندما أكدت لها بأن تدخّل الجهات الرسمية في حل مشكلتها سيحد إنشاء الله من تطاول زوجها عليها بالضرب، ويضمن لها حقوقها الشرعية، ويضمن حياتها بدون ألم الجوع والبرد مع أطفالها. لكنها فضلت التراجع! فضلت التحمل عندما شعرت بقرب المواجهة مع زوجها! وفضلت البحث عن عمل يحقق لها دخلًا حتى لو كان بسيطًا، ولا أن تثير غضب زوجها الذي يتطاول عليها بالضرب بدون سبب، أو كلما ثارت أعصابه بسبب المنشطات، فكيف عندما تتصل به جهة حكومية مسؤولة عن العنف الأسري وتطلب منه الحضور والتحقق من شكوى زوجته، وأخذ التعهدات الشفوية والكتابية عليه بعدم تكرار ذلك في بداية الأمر، وإلا ستحال شكواها على الجهات الأمنية لكي تتخذ مع زوجها الإجراءات الأشدّ!

ردت زينب بدهشة: «يا إلهي، لا، لا اتركوني أفكر مرة أخرى!»

فردت عليها الأخصائية بدهشة: كيف ستعالجين

مشكلتك وتعيشين حياة معززة ومكرمة وأنت تستسلمين لزوجك القاسي؟

صمتت زينب قليلًا، وردت بألم: «إني أحتاج إلى فرصة أخيرة للتفكير»!

بعد أيام رفعت «زينب» سماعة الهاتف وبصوت مرتجف، أخبرت الأخصائية أنها قررت أن تبحث لها عن عمل يلبي احتياجاتها واحتياجات أطفالها، وألّا تشكو «عمار» على الرغم من ضربها كلما طلبت منه مالًا لسد جوع أطفالها، لأن ما يعانيه «عمار» من ديون متراكمة عليه، سبب في انفلات أعصابه وتهجمه عليها، وليس كرهه لها، لأنه يعود إليها آسفًا مبديًا التوبة عن ضربها وتعذيبها، حتى وإن كان صامتًا معبرًا لها بنظراته الخائفة عليها!

بعد شهور من التحمل والحاجة وتدهور وضع «عمار» المادي لاقتطاع البنك أغلب راتبه لسداد ديونه وإلا ستكون نهايته السجن، قررت زينب أن تبيع البليلة في الحديقة المقاربة لمنزلها المستأجر والمهددة بالطرد منه في أي لحظة بعدما رحل عمار وتركها وحيدة مع أطفالها، حيث فضّل الرحيل ليواجه ديونه لوحده بدلًا من التنفيس على جسد زينب الضعيف الذي يذكره بعجزه أكثر!.

التفسير النفسي

إن شخصية زينب تعدّ من الشخصيات الضعيفة غير الواثقة بقدراتها، حيث اعتمدت بشكل كبير في شؤونها على

«زوجها عمّار» ذي الشخصية المضطربة والحديّة في تصرفاته، وقد فشلت كثيرًا في اتخاذ قرارات تنقذ نفسها من الآلام التي عاشتها لسنوات طويلة، فكانت تخاف خوفًا شديدًا من اتخاذ قرار يبعدها عن حياتها التي اعتادتها، وتريد من الآخرين أن يتخذوا بالنيابة عنها قرارًا ينقذها من الذل الذي تتعرض له، لكن لا يؤدي إلى خسارتها لزوجها، على الرغم من سوء طبعه وخلقه معها، وعلى الرغم من تقلب مزاجه اليومي معها واستغلاله العاطفي لها إلا أنه آثر الهروب من حياته معها!

فقد كان «عمار» يعتبر زينب أروع إنسانة في حياته، لكنه يتقلب كل فترة ويحتقرها ويهينها لأنه يحمل همًا بداخله وإحباطًا يبرره بأن زينب لم تفهمه ولم تفهم احتياجاته كما يجب! على الرغم من بساطتها في الحياة، وقناعتها بما هو موجود من حولها، وتسامحها اللا محدود معه، إلا أن ذلك لم يرضه، لأنه يجهل بأن ظروفها التي تشعرها باستمرار بالغربة وبالوحدة لوجود أسرتها في بلد آخر، أدت إلى مسايرتها كثيرًا إياه، وتنازلها عن حقوق كثيرة تحافظ على كرامتها،فكانت تكيف مشاعرها وتصرفاتها كسبًا لزوجها الذي لايشعرها بثبات عواطفه المتقلبه تجاهها وردود فعله العنيفة ضدها لأتفه سبب! لكن زينب لم تستطع أيضًا الخروج من دوامة تلك العواطف المتقلبة التي أغرقها بها زوجها لشخصيته المتسلطة على أقرب الناس له، فكان لديه عناد كبير وتحدّ للظروف التي يعيش فيها، وجرأته الزائدة في الاعتراف لزوجته بعلاقاته

غير المشروعة بامرأة أخرى سببت الكثير من الإيذاء النفسي والجنسي لها!

لكن «زينب» أصبحت بمرور السنوات شخصية تطغى عليها مشاعر العجز الشامل وعدم القدرة على اتخاذ القرارات التي تنقذها من وضعها السيئ، وبدأت تسيطر عليها مشاعر الخوف من الطلاق، والرعب من سحب الجنسية منها، لأنه باستمرار يهددها بذلك ولم تكن تعلم بأن النظام يحميها ولايعطيه الحق لكي ينفذ تهديداته لها، كمثل تهديده لها بإعادتها إلى بلادها خاوية اليدين من أطفالها الذين تحملت الكثير لكي تحميهم من عذابات والدهم المتهور!.

لذلك لم تستطع «زينب» التخلص من أذى زوجها إلا بعد سنوات طويلة، وبعد مرورها بتجارب مفجعة أدت إلى يقظتها بأنها على وشك الانهيار، ولم تتحرك للبحث عمن ينقذها بالمساعدة والمساندة من الجهات المسؤولة، إلا بعدما غرقت لوحدها مع أطفالها في حياة يلفها القلق والخوف، ومن كونها أصبحت عرضة للاستغلال مرة أخرى من الرجل الغريب، وهي تبيع أيضًا البليلة في حديقة عامة لكي تؤمّن مصدر عيشها هي وأطفالها، لأن هذا العمل البسيط الذي فازت به لكي تسد جوعها وجوع أطفالها كان سببًا أيضًا في تعرضها لمضايقات كثيرة من الرجال المتطفلين في الحديقة على الرغم من صحبة زوجاتهم لهم! وعلى الرغم من تقدمها لمكتب الضمان الاجتماعي لكي يصرف لها مستحقاتها الشهرية كمطلقة تعيل أطفالًا وتسكن

منزلًا بالإيجار، إلا أن هذا المستحق الشهري لا يتجاوز الألف ريال في الشهر، ولن يكفيها لتلبية احتياجات أسرتها، لكنها لم تقف ولم تيأس بل هربت من رجال الحديقة إلى عمل آخر في مشغل نسائي أكثر أمانًا لها، على الرغم من ساعات العمل المسائية الطويلة لكنها لم تقف أو تضعف كما كانت في الماضي وذلك تحديًا للظروف التي تعيشها، وتلك المصاعب التي منحتها قوة لمواجهة الصدمات التي تحيط بها طوال حياتها.

الفصل الثالث

أكذوبة «ضرب الحبيب مثل أكل الزبيب»!

لم تتخيل أمل أن حبها الكبير لزوجها سيتحول يومًا إلى لعنة تطاردها في عملها وأمام أسرتها وأطفالها الذين كبروا وبدأوا يعاتبونها على زواجها من رجل لم تتحقق من هويّة حياته الماضية!

«أمل» ذات الثلاثين عامًا ناجحة في منصبها الوظيفي في أحد المستشفيات الكبرى، وذات جمال جذاب، وثقافة عالية، وهدوء يأسر من حولها. هذا الجمال الذي كان سهمًا لقلب زوجها «وائل»، أصبح نقمة على حياتها عندما بدأ زوجها يطاردها في عملها ويراقب اتصالاتها التي لا تنقطع بحكم عملها بالمستشفى «لكنه لم يصدقها»، حيث كان لا يتحمل إجاباتها على تلك الاتصالات في ساعة متأخرة من الليل! وبدأ الخوف يغزو حياته خوفًا من فقده لاهتمام زوجته به، واهتمامها بعملها أكثر منه!

وفي الوقت نفسه كانت «أمل» تحب الظهور الاجتماعي الذي يناسب مركزها الوظيفي، ويجاري

علاقاتها مع زميلاتها بالعمل، حيث بدأت طلباتها تزداد عامًا بعد عام، ووائل يلبي لها كل ما تريد من سيارة فخمة إلى سفر سنوي إلى بلاد أوروبا، إلى فيلا راقية، فالمهم لدى وائل هو أن يمتلك وحده قلبها، ويكسب رضاها دون غيره، لذلك الخوف الذي بداخله من أي غزو عاطفي خارجي بحكم عملها المفتوح جدًا! خاصة أنه أحق من غيره بقلبها، فهو زوجها ووالد أطفالها.

مرت السنوات وبدأت «أمل» تكره في وائل حبه المرضي لها، وإصراره على امتلاكها كإنسانة لها مشاعرها، وأفكارها وطموحها الذي لا يتوقف عند منصب عادي في مستشفى مشهور، فقد كان طموحها يدفعها للتنافس الشريف مع زملائها، ويدفعها لكي تمدد أكثر في ساعات عملها، مما سبب تأخرها عن العودة إلى منزلها لساعات طويلة بعد العصر، ويظل وائل يوميًا في انتظارها، ويتأخر في تناول غدائه حتى المساء، ويبدأ أطفالها يشكون من الانتظار والجوع والتذمر وحاجتهم إلى النوم والراحة! لكن «أمل» ترى أن تجاوبها مع واجباتها المنزلية اليومية المتكررة سيعيق تحقيق طموحها بالفوز بالمنصب المنافس عليه!.

في الجانب الآخر والمعتم من حياة أمل، كانت مواقف وائل من طموحها لا تغيب عن بالها، حيث لا يبرر تأخرها عن عودتها إلى المنزل كغيرها من النساء العاملات برغبتها في الفوز بمنصب وظيفي جديد، بل يبرره بما يرضي شكوكه كرجل وزوج مهضومة حقوقه في وجود زوجة تكون كالخادم المطيع له كمثل زوجات أصدقائه وأقاربه

الذين يستمتعون بطاعة زوجاتهم الباقيات والخاشعات في منازلهن بانتظار أزواجهن الكادحين من أجل لقمة العيش!

بلا شك إن تبريرات وائل وتفسيراته المريضة، التي ترضي مزاجه وتوافق شكوكه، أدت إلى اتساع دائرة المشاجرات مع «أمل» يوميًا! حينئذ صرخت في وجهه بكل قوتها، وأطلقت قنبلتها التي قصمت القشة التي بقيت بينهما عندما اتهمته «بالمرض النفسي» حينما طلب منها أن تجاوبه بصراحة: «أكل هذا التأخر عمل؟ أم هناك أمر آخر أهم من زوجك وبيتك؟».

لكنه لم يتوقف عند صرختها الأولى واتهامها له بالمرض النفسي، ودموعها التي نزلت لاشعوريًا وحرقت قلبها، قبل أن تحرق يديها عندما مسحتها عن خديها! بل ازداد عنفًا، وبدأ يخطط كيف يتحقق من شكوكه، إنها بلاشك بدأت تكرهه وتحاول الابتعاد عنه، لأنها أصبحت لا تشاركه في الطعام، أو الخروج معه مثل السابق في مشوار عائلي مشترك، أو خاص لهما بعد نوم أطفالهما، بل الأمر أكبر عندما قاطعته حتى في غرفة نومهما ولجأت إلى النوم في غرفة ابنتها الكبرى! وهنا زادت شكوك «وائل» قوة لمجرد مقاطعة زوجته له في غرفة نومهما التي تحمل ذكرياتهما الجميلة منذ زواجهما، وتفجرت شكوكه أكثر، وأقسم بينه وبين نفسه بأن هناك رجلًا في حياة «أمل»، لكن من سيكون هذا الحقير الذي سرق قلب زوجته وجعل منها امرأة خائنة لزوج محب معطاء؟

وبدأت دائرة الشكوك لدى «وائل» تكبر وتكبر معها

المشاحنات اليومية مع زوجته، لأنه لم يستطع إبعادها عن عملها عندما ذهب خفية إلى مديرها في العمل يطلب منه فصلها لأنه ولي أمرها! ومن حقه أن يوقفها عن العمل وإعادتها لرعاية منزلها وأطفالها، فهو لا يحتاج إلى راتبها بقدر ما يحتاج إليها كزوجة وفيّة له وأم حنون على أطفالها!

لكنه صعق عندما أجابه مدير أمل بقوله: «ماذا تظن نفسك؟ أنت لا تملك فصلها من العمل، هذا قرارها لوحدها، فهي راشدة وطبيبة مسؤولة عن قراراتها، ومسؤولة عن نفسها، وهي من يملك قرارها الوظيفي، وليس أنت»؟

فأجاب بدهشة وغضب: «لكنني زوجها... وولي أمرها»!

تأمله رئيس أمل بسخرية «حتى.. لو، الولاية ليس على الراشدين يا أستاذ بل على القاصرين، والمجانين، وزوجتك ليست بقاصر أو مجنونة»!

لو سمحت... انتهى وقت مقابلتك لدي ارتباطات أهم من طلبك السخيف هذا!

انفجر «وائل» غضبًا أكثر، وشعر بعجزه أكثر، أمام الشكوك التي تأكله كل يوم، كما تأكل النار الحطب، وخرج مسرعًا خوفًا من مقابلته لزوجته في أي ممر من ممرات المستشفى الطويلة، التي قطعها في ثوان ليصل إلى سيارته ويقودها مسرعًا متجهًا إلى مكتبه وهو يلعن ويشتم رئيس «أمل» الذي قد يكون «هو حبيب قلبها»؟

فأخذت الشكوك تدور في رأسه بقوة عاصفة، فعلًا لماذا لا يكون هو؟

ابن....! لن أسكت له أبدًا لو كان هو الرجل الذي فضلته عليّ؟ سأقتله مهما كانت النهاية!

لماذا يدافع عنها هذا الدفاع الذي جعلها في مصاف المثاليات من النساء، وهي من النساء المهملات لأسرهن، والخائنات لأزواجهن، والأنانيات في رغباتهن؟

ومرت ساعات ثقيلة من نهار «وائل»، ليجد نفسه أمام «أمل» في منزلهما، وأمام أبنائه فأطلق قنبلة مدوية في وجهها، أن عليها أن تختار إما أسرتها، وإما الطلاق!

لكن «أمل» لم تجد منقذًا لكرامتها وأخلاقها التي شكك فيها زوجها بعد عشرة طويلة، وقرابة الدم التي لم يحترمها، وأبنائهما الأربعة الذين تجرعوا من الألم والحزن الكثير، إلا أن تطلب منه الطلاق وتختاره حلًا جذريًا لشكوكه وسلطته التي لن تتوقف أبدًا، ولن تتوقف معه صفعاته المفاجئة على وجهها كلما ثار وسخط عليها، ويبدي بعدها الندم والتوسل لكي تسامحه!

لقد سامحته كثيرًا، وتجاوزت عن صفعاته التي يتباكى بعدها طلبًا للسماح والغفران!

لم تنسَ «أمل» أنها تنازلت عن كرامتها كثيرًا، لكي تحافظ على منزلها وزوجها وأطفالها، وأيضًا عملها، لكن بعد هذه السنوات سيعتمد أطفالها على أنفسهم ولن يحتاجوا إلى رعايتها، وسيدركون كم هي تحملت من أجلهم، وعملها لا ترغب أن تخسره بسبب شكوك زوجها القاتلة، الذي لن يتغير مادام تنازلت له عن أول صفعة! لأنه رآها بوابة مشرّعة لصفعات أخرى!

فاستغل «وائل» غياب «أمل» عنه وعن أطفالها في تنفيس كل الحقد والقهر اللذين في قلبه، وبدأ يمارس كل أصناف التعذيب على أطفاله لشهور، ويحرمهم من زيارة والدتهم، ومن الخروج إلا للضرورة القصوى، وغاب في عالمه الخاص الذي لم يهدئ من ثورة الغضب بداخله تجاه تخلي زوجته عنه!

لكن «أمل» لم تتوقف عند هذا الحد، بل اتجهت فورًا إلى المحكمة لكي تفوز بطلاقها الذي حصلت عليه بعد عناء سنوات، ودخلت حربًا أقوى لكي تحصل على حقها في حماية أطفالها من والدهم الذي لم يرحمهم بعد غيابها!

وكان يومًا لا ينسى عندما حكم القاضي لها بأحقيتها في رعايتهم وسكنهم لديها في منزلها الجديد، ولا يحق لوالدهم سوى ساعات في الأسبوع لكي يراهم، هذا الحق الذي فازت به «أمل» من الصعب على أي أم الحصول عليه، لكن قوة أمل وتمسكها أخيرًا بما لها وعليها، وقوة أطفالها في التعبير عما يؤلمهم من تعامل والدهم القاسي، وآثار الأذى على أجسادهم الغضة، دفعت القاضي أن يقول كلمة الحق من أجلهم من الجلسة الأولى!

التفسير النفسي

إن العلة التي كانت في شخصية «وائل»، وهي الإفراط في إساءة الظن والشكوك في الآخرين ومنهم «زوجته» ظهرت بدرجة كبيرة عندما دخل مرحلة العناد والتحدي لإثبات شكوكه في زوجته وهذا ما نسميه

«اضطراب الشخصية من النوع البارنوي» وبدأت تسيطر عليه تلك الشكوك لأنه لم يبحث عن حقيقة أخلاق زوجته التي عاش معها لسنوات طويلة، بل حاول تحطيمها واتهامها بما يثنيها عن رغبتها في النجاح! فالاضطراب الذي يعانيه «اضطراب الشك والريبة» أدى إلى توقعه الغدر أو الخيانة من أقرب الناس له، وإسقاطه بأخطائه وهفواته على الآخرين وبالذات زوجته «أمل» لأن نجاحها كان قاتلًا له، حيث أصبحت محاطة بكثير من الرجال في مجال عملها، مما أدى إلى سيطرة الخوف المرضي عليه من خسارتها فيدفعه للمسارعة في الرد عليها قولًا وفعلًا ولايستطيع التحكم في انفعالاته المبالغ فيها والتي تفوق الموقف قلبًا وقالبًا، وهذه التصرفات العدائية من «وائل» أدت إلى ابتعاد «أمل» عنه أكثر ولم تسعَ إلى مساندته في حالته النفسية التي سيطرت عليه، بل ابتعدت ابتعادًا زاد من حالته سوءًا وسببت مبالغته في العداء تجاهها، وبدأ يلجأ إلى الضرب لكي يسيطر عليها أكثر محاولة منه لإثبات وجوده في حياتها كرجل وزوج يجب أن لا تتجاوز حدودها معه! وحينئذ كثرت خلافاته الأسرية، وخلافاته مع أخوته ووالديه وكذلك الناس من حوله، وبدأ يصب جام غضبه على أبنائه الذين يميلون كل الميل العاطفي والنفسي إلى والدتهم التي تضررت كثيرًا من والدهم، وبذلك ازداد عنده القلق والتوتر النفسي بسبب مشاعر العداء التي يشعر بها من أبنائه، ومشاعر الكره من زوجته التي أفرط في مراقبتها، وتأهبه المستمر لأي طارىء قد يواجهه منها، وازدادت عنده مشاعر الإحباط والكآبة من تمسك زوجته بموقفها تجاه

عملها بشكل يومي. وهذا مما سبب تعرضه لضغوط نفسية وعصبية فكانت وسيلته الوحيدة للتعايش مع تلك الضغوط بالتنفيس عنها بالأذى المستمر على زوجته! أما أمل فقد فشلت عندما حاولت للمرة الأخيرة أن تصارحه بظنونه الخاطئة تجاهها، وفشلت عندما وجدت أنه يرمي بكل أخطائه عليها وأنها المسبب لها، وفشلت عندما حاولت أن تكتب له رسالة توضح له ما يؤلمها منه بدلًا من مواجهته بالكلام حتى لا يلجأ إلى التفاهم معها بيديه القويتين، إلا أنه اتهمها باحتقاره وتمادى في شكوكه التي دفعتها للعيش بعيدًا عنه.

وعلى الرغم من أن شخصية «وائل» قوية ومثابرة ويقظة في عمله، لكن أعماقه المتشبعة بالشك في زوجته، زادت من تحقيرها له، كما زادت من الفجوة العاطفية بينهما، فكل منهما لم يحاول احتواء الآخر، على الرغم من سنوات زواجهما التي انتهت بالفشل والانفصال، فما وصلت إليه «أمل» من يأس في تعديل طباع زوجها المؤذية لها، لم يشفع لرغبة زوجها في عودتها إليه، بل كل منهما كان يبحث عن التخلص من الآخر في أسرع وقت ممكن، وبشتى الوسائل وذلك لمشاعر الاضطهاد المتبادلة بين الطرفين، خاصة أن تمادي «وائل» في الشك ساهمت فيه «أمل» بدون قصد منها، لأنها فشلت بداية في إدارة وقتها بين عملها ومنزلها الذي أهملت حقوقه بسبب تصميمها على نجاحات كبرى في مجال عملها!

الفصل الرابع

خمسة وثلاثون عامًا من العناء

لم تكن تعلم «أم سعد» أن صبرها طوال 35 سنة خوفًا من لقب «مطلقة»، وخوفًا من رفض أسرتها لأطفالها لأنهم فقراء ولا يستطيعون تحمل نفقاتهم! وخوفًا من ضياع حقوقها.. لا منزل، لا صك طلاق، ولا مصدر دخل تنفق منه على نفسها وأطفالها، هو أنها ستكون «ضحية» طوال تلك السنوات، وأن صبرها أصبح ظلمًا لآخرين معها ألا وهم «أبناؤها» الذين أصبحوا طوال سنوات صبرها «ضحية عنف والدهم»!

صبر «أم سعد» توقف بعد 35سنة، وأصبح لا يهمها أن تكون مطلقة بعد عشرة دامت «55 سنة»!

وعندما دخلت «أم سعد» مكتب الأخصائية الاجتماعية لم يهمها ماذا ستكون النتيجة، دخلت وهي تغطي وجهها بغطاء أسود شفاف، ولا يبدو للشاهد سوى دموع اغرورقت بها عيناها المنكمشتان من الحزن!

«إكشفي عن وجهك يا خالة»، قالتها الأخصائية بكل

هدوء، وذلك بعدما طلبت من «أم سعد» الجلوس لكي تلتقط أنفاسها التي تتلاحق بعد صعودها سلالم ثلاثة أدوار لكي تصل إلى مكتب «الأخصائية». وبعد مرور دقائق هدأت قليلًا، كشفت عن غطائها الأسود الذي يبدو أنه شاهد على سنوات طويلة من المرارة والحرمان! وبعدما تنهدت عدة مرات، بدأت بالسلام على الأخصائية وتمسح بحياء دموعها بغطائها الذي تمسك به بيديها اليابستين من تعب سنوات عمرها الماضية!

- سألتها الأخصائية: خير يا خالتي، ممكن أعرف اسمك؟

ردت فورًا «يا بنتي، ليه الفضايح؟ يكفي أقول لك اسمي «أم سعد»، أنا «بنت ناس» وعيالي كبار، ولو يدرون أنني وصلت لكم بيزعلون عليّ!

فردّت الأخصائية بابتسامة مطمئنة لها: يا خالتي «أم سعد» اطمئني لن يعرف أحد بحضورك إلى هنا، لكن خير إنشاء الله، ما هي شكواك؟

بعدما شخصت ببصرها إلى سقف المكتب محاولة الهرب بنظرها من نظرات الأخصائية التي يقترب عمرها من عمر إحدى بناتها.

أجابتها «أم سعد»: يا بنتي أنا تعبانه من حياتي بسبب زوجي، وأبغاكم تحلون مشاكلي معه، وتنصحونه ما يضربني.. خلاص والله أني تعبت! تعبت من ضربه، وإهاناته لي من صغري، حتى كبرت وأنجبت له العيال،

وكنت مثل الخادمة عنده! أسمع أوامره ونواهيه! حتى الخادمة تأخذ راتب، وأنا راتبي السبّ والشتم والضرب!

- الأخصائية: منذ متى وأنت متزوجة يا خالتي؟

ردت أم سعد: من 35 سنة! وأنا أعاني الإهانة، والضرب، والبخل!

- الأخصائية: خالتي: صبرتِ «35 سنة»؟!!

- أم سعد: صبرت بسبب أطفالي، والحين كبروا وصاروا رجال، والحين من حقي أرتاح، وأنام، ولا أشوف وجهه كل يوم وهو يسبني ويضربني، ما يحترم حتى «عمري، وشيبي، ومرضي»!

- أجابتها الأخصائية: خالتي، أنت تعرفين أبا سعد أكثر منا، ما الذي يريحك لكي نعالج مشكلتك معه؟

هل نتصل به لكي يحضر إلى المكتب ويتم تحديد جلسات استشارية لكما، ونحاول الإصلاح بينكما؟، أم هناك حل آخر ترغبين فيه؟

- أم سعد: لا، يا بنيتي، أبغي الطلاق، وعساني أسلم منه ومن مشاكله!

- الأخصائية: بعد 35 سنة يا خالة تطلبين الطلاق؟!

- أم سعد: أتطلق أحسن، وتصرف لي إعانة من الضمان حتى لو كانت «200 ريال» وإن كان

صبري على ضربه، وضرب عيالي، سبب لي الضغط والسكر، وولدي الكبير صار «أصم»، والأوسط صار منحرفًا يهرب من البيت ويسرق المحلات! ودخل دار الأحداث عندما أمسكته الشرطة، لكنه لم يبق لديها سوى أسبوع رحمة بحالي عندما ذهبت إلى مدير الدار وبكيت بكاء مريرًا أمامه، فسمح له بالخروج بعدما تعهدت بالانتباه له، وتربيته تربية صالحة.

لكنني اكتشفت أن صبري على والدهم أكبر غلطة في حياتي يا بنتي، لكن لو تطلّقت من صغري، وين أروح؟ ومن يصرف على عيالي؟ لأنه باستمرار يهددني بأنه سيطردني ويأخذ عيالي مني ويحرمني منهم؟ ويحرمني من صك الطلاق؟ ولا أقدر أتزوج مرة ثانية؟ ويزعلون أهلي بعدها عليّ ويرجعوني عليه مهزومة مرة ثانية وثالثة بحجة أنني أم ومن سيتزوجني مرة أخرى!

- أم سعد تقول قرارها الأخير بعد تنهدات حارة ومتواصلة: صحيح إني صبرت 35 سنة، وعمري 55 سنة الآن، لكن ما فيها شيء أتطلق، وأعيش باقي عمري مرتاحة!

خلاص، توكلت على الله. سجلي عندك شكواي، وارفعيها للمحكمة، وسأتحمل كل النتائج لأني طول عمري وأنا أتحمل، وأتحمل، ولكن بدون نتيجة ترضيني!

التفسير النفسي

أم سعد نموذج متكرر لنساء كثيرات وخاصة أولئك اللاتي استسلمن لموروث اجتماعي يقوم على ضرورة تقديس مكانة الرجل في حياة المرأة ولا سيما «الزوج» بغض النظر عن نوع طباعه طيبة أم شريرة، يقوم بواجباته كزوج وأب، أم لا يقوم بها، فهذا الأمر غير قابل للنقاش لدى تلك الأسر التي تربي بناتها على تقديس الزوج منذ الصغر، لذلك سببت شخصية أم سعد الطيبة والساذجة لها التعرض لأوجه عديدة من الاستغلال من زوج كريه في طباعه وحياته المريرة كل يوم، لكن كان لدى «أم سعد» قناعة قوية بأن هذا الزوج قدرها المحتوم وعليها التكيف معه وتقبله كما هو، لذلك مرت بالعديد من المواقف المؤذية لإنسانيتها وكرامتها ومكانتها كزوجة وكأم لكنها لم تلجأ إلى الشكوى لأسرتها، أو معارضة الزوج حتى لو بكلمات بسيطة أو مواقف معبرة عما تحبه وعما تكرهه، بل واجهتها بالصمت والصبر والتسامح الزائد، مما لم يشفع لها بالرحمة وحسن التعامل من زوجها بمرور السنوات وتخطيها سنوات الشباب والتحمل! لأن صفاتها كزوجة ساذجة وأم طيبة حنون ساعدت على تمادي زوجها العدواني في استغلالها جسديًا وعاطفيًا، فقد كانت تابعة له باطنًا وظاهرًا، وكان عفوها عن أخطائه من أجل احتساب الأجر كما تعودت وعاشت عليه منذ صغرها مع والدتها الصابرة والمحتسبة للأجر في حياتها الصعبة! لذلك فإن أم

سعد عاشت استغلالًا مؤذيًا ومباشرًا من زوج محتال وماكر كان يتهمها بالفشل كزوجة وأم، وينتقص من دورها في حياته وحياة أطفالهما، وباستمرار كان بشخصيته الاستغلالية الجاحدة لعطاءات زوجته اليومية يستلذ بالتلاعب بأفكارها ومشاعرها حتى وصل به الأمر إلى قناعتها بأنها لا تستطيع التخلص منه بالرغم من سوء طبعه الذي كان يتفضل به عليها، وأنها لا تستحق حتى من يعاشرها كزوجة لغباوتها وطيبتها الزائدة! وبدأت تدخل أم سعد دوامة من المشاعر السلبية مثل الخوف على مستقبل أطفالها في ظل ظروف صعبة وفقدان أب يخاف عليهم ويرعاهم، وإحساسها بالدونية وأنها أقل من غيرها من النساء اللاتي حظين بأزواج عطوفين وكرماء معهن، وتلك النوبات من القلق التي حرمتها من التمتع حتى بساعات بسيطة من النوم الهادىء والمريح لجسدها المتعب طوال يومها، ومشاعر الوحدة التي تعتريها طوال حياتها حيث لا تنعم بمساندة الزوج، أو أسرتها، أو حتى صديقة تنفس لها عما يضايقها أو يؤلمها من مواقف ضاغطة على أعصابها في حياتها! لذلك جميع تلك المشاعر السلبية أساءت إلى حالتها الصحية مما سبب لها ارتفاعًا حادًا في الضغط، ثم بدأت تشعر بنوبات السكر التي تفاجئها عندما تشعر بأن لحظات الهزيمة مع زوجها تضغط على أعصابها، وعندما تشاهد أمامها كيف يعذب أولاده بتجاهله لهم ولاحتياجاتهم اليومية، وإهماله لمتابعتهم في المدرسة، وشتمهم بأبشع

الألفاظ بأنهم أغبياء أبناء الغبية! بل تلك المشاعر السلبية لم تتحرك إلا بعدما انهارت جسديًا ورأت أن صبرها وخدمتها على زوج لا يستحق لم يثمرا سوى بالفشل لها ولأولادها، لذلك قررت أن تنقذ ما بقي لها من حياة حتى لو أشرفت على الخمسين التي لن تساندها أمام ماتعيشه مع زوج لم تثنه سنوات عمره عن قسوته في التعامل مع أسرته وخصوصًا مع أقرب الناس له زوجته!

الفصل الخامس

تنازل عن كرامة إنسان

لم تكن تتخيل «أم سمر» بأن حياة زوجها ستكون بيديها، وبأنها الوحيدة التي تقرر مصيره بالخروج من السجن، أو البقاء حتى انتهاء أيام العيد، ويخرج من السجن بكفالة حضورية قوية!

لم تتخيل ذلك عندما قال لها المحقق ذلك وهو يزورها في المستشفى، عند مرافقتها لابنتها «سمر» بعدما تعرضت لضرب عنيف مؤذ من والدها، لأنها لم تحضر له كأسًا من الشاي كما طلب منها!

يا إلهي، هل أصبحت لي قيمة كإنسانة «أخذت ترددها أم سمر بداخلها بكل ذهول» وأنا من سيقرر العقوبة على هذا الزوج الشرير، والأب الظالم، بماذا يا رب؟ بالسجن لشهور، أو الجلد بمئة جلدة، أو سيكون أكثر عندما يقول الطب الشرعي كلمته؟ أم سيخرج حرًا طليقًا بعد أن أتنازل أمام المحققين وأوقع بما سيمليه عليّ ضابط التحقيق «بأنني.. أنا سعدية بنت عامر آل ناصر، أتنازل عن زوجي المدعو «شاهر بن مسعد» عن حقي بالمطالبة بتطبيق

العقوبة الشرعية المقررة عليه بعدما تعرض لابنتنا نهى بالضرب المبرح، وذلك باستخدام خرطوم الماء مما أدى إلى نزف الدم من جسدها الصغير، وتعرضت للإغماء ونقلها للمستشفى لحاجتها إلى الرعاية الطبية».

أقر بأنني أتنازل وأنا بكامل قواي العقلية مع أخذ التعهدات عليه بعدم التعرض لها بالضرب مرة أخرى، وإلا سيتم إبلاغ الجهات الرسمية لتطبيق أشد العقوبات بشأنه».

وعلى ذلك أوقع

سعدية بنت عامر

وأخذت الأفكار تراودها. هل أتنازل أم لا؟ إذا لم أتنازل فسأحرمه من قضاء إجازة العيد معنا وإن كان لا يستحق! لكننا سنقضي العيد بدونه وإن كان لا يفرحنا وجوده! ولكن لا يسعدنا غيابه لأنه زوجي، ووالد أطفالي!

سأتنازل.. وإن كنت سأغضب والدتي التي تعبت معنا كثيرًا، وسأغضب أخي الذي أنقذ ابنتي عندما أخذها بسيارته مسرعًا إلى أقرب مستوصف في قريتنا.

بل سيغضب كثيرًا لأنني سأتنازل بعد أسبوع من سجن والد «سمر» الذي أمرت شرطة المنطقة بإيقافه والتحقيق معه، وتحويله إلى الجهة المعنية التي تقرر عقوبته، لأنه اعتداء على النفس قد يؤدي إلى القتل!

لقد عقدت الحيرة، وكبّل الخوف والدة «سمر» عندما زارها فريق اجتماعي يهتم بدراسة حالة الأطفال المتعرضين

للعنف من أسرهم، وكان الفريق يدرس وضع «سمر» النفسي والأسري بعدما تعرضت للضرب من والدها، وذلك لكي يتم تحديد الأصلح لها بعد سجن والدها لاعتدائه المتكرر عليها، وعلى أخواتها الأخريات، واعتدائه أيضًا على زوجته التي أصبح ضربه لها وجبة رئيسية من وجباتها اليومية «لا تستنكره ولا تستغربه»!

تلعثمت «والدة سمر» التي لا تستنكر اعتداء زوجها بالضرب عليها، لكنها تستنكره على بناتها الصغيرات عندما أخبرتها إحدى أخصائيات الفريق بقولها «انتبهي يا أم سمر.. لا تتنازلي عن عقوبة زوجك حتى ينال جزاءه، ولا يكرر اعتداءه عليك أو على أولئك الصغيرات»!

ولم يكن جوابها سوى الصمت والحيرة، خاصة عندما صرخت والدتها في وجهها «يا ويلك.. يا ويلك..لو تنازلت عنه، لا أنت بنتي... ولا أنا أمك..».

وبدأت جدة سمر تذكر والدتها ببطولات والدها الشيطانية بقولها: هل نسيتِ ضربه لك حتى يدمي جسمك؟.. هل نسيتِ صراخك كل فترة عندما يتهجم عليك وتتصلين بنا شاكية باكية وعندما أطلب منك تركه، وطلب الطلاق، والبقاء عندي حماية لك ولأطفالك، لكنك ترفضين وتجلسين بالقرب منه في خدمته ورعايته، وإشباع رغباته كزوج لا يستحق إلا التأديب!

هل نسيت ما تتعرض له بناتك الصغيرات كل يوم من طيشه، وقسوته، فابنتك نجلاء تعرضت أسنانها للكسر!

وابنتك سعاد عندما قصّ شعرها الطويل لأنها لم تحضر له كأسًا من الماء! وابنك الصغير خالد الذي رمى به بعيدًا كأنه يقذف كرة مطاطية وتعرضت ساقه للكسر؟

وأنتِ.. لا كرامة لك، ولا عزة نفس، ولا اهتمام بنفسك، كل هذا بسبب زوج لا يستحق إلا الدفن وهو حيّ في «حفرة من الرمل الساخن»!

لكن والدة «سمر» لم تتحمل كل هذا الهجوم السيئ من والدتها على زوجها أمام أناس غرباء «الأخصائيات الاجتماعيات» وحاولت إسكات والدتها المقهورة من سلبيتها بقولها: «خلاص.. لو سمحت يا أمي اسكتي، هذا زوجي مهما عمل».

وبعدما انتهت زيارة فريق حماية الأطفال للطفلة «سمر» في المستشفى، أكّدوا على والدتها وجدتها بأن لا تلتقي سمر والدها مهما كانت الأسباب حتى الانتهاء من دراسة حالتها السيئة، وتحويل والدها إلى القضاء حتى ينال جزاءه على تعذيبه لبناته الضعيفات ووالدتهن! لكن بعد يومين اتجهت أم «سمر» إلى مركز الشرطة، واصطحبت معها «سمر» بعد علاجها لمدة 14 يومًا من آثار التعذيب على جسدها الصغير! واصطحبت معها أخواتها الصغيرات للسلام على والدهن والتأكيد على تنازلها عن حقها الخاص في ابنتها، وبعدها عادت معه خفية عن أهلها إلى قريتها البعيدة عن مدينتهم، لأنها على يقين تام بأنهم لن يستقبلوها مع زوجها! ولن يستقبلوها بعد اليوم مهما شكت.. وبكت.. ومهما طلبت المساعدة والإغاثة من ضرب زوجها لها!

أم سمر.. لم تدرك بأنها ستلقي ببناتها الصغيرات للتهلكة مرة أخرى بعد تنازلها عن عقوبة والدهن الذي أسعده كثيرًا.. لكنها لم تكبر في نظره كزوجة رحيمة سوى لأيام خوفًا من تهديدات ضابط الشرطة له.. وبعدها بأيام لم يرحم جسدها الهالك من خدمتها له، وإنجابها المتكرر لصغار عاد لرفسهم، وركلهم، لأنه سيحظى بتنازل آخر مادامت «زوجته» لا تستنكر ضربه لها الذي استلذته كمثل لذتها بحبها لزوجها في لحظة صفاء!

التفسير النفسي

إن تنازل أم سمر عن عقوبة زوجها وهي بيديها معاقبته بدعم من الجهات الأمنية التي وقفت بجانبها ليس إلا سلسلة من التنازلات التي تعيشها أم سمر مع زوجها خوفًا منه «وهناك شبيهات كثيرات من النساء يعشن تحت ضغوط التنازلات طوال حياتهن الزوجية»، وأم سمر بتنازلها هذا لا تعلم بأنها تكافيء والد ابنتها المعذبة من قسوته، أكثر من فضلها عليه بعدم تعرضه للعقاب من الجهات القضائية! حيث أن والد سمر من الشخصيات التي تتسم بإفراط في القسوة والرغبة في الاعتداء على الآخرين والتسلط عليهم، وشخصية زوجته «أم سمر» الاعتمادية، ذات طبع يتسم بالضعف والخوف الشديد، وتنازلها بسهولة عن حقوقها «في العيش مع صغيراتها بأمان» خوفًا من ابتعاده عنها لعدم قدرتها على مواجهة أي مشكلة خارج نطاق منزلها الصغير، كل ذلك ساعد على دفعه أكثر لكي يستسهل الإقدام على انتهاك حقوق زوجته وبناته في توفير

حياة آمنة! وكان للمخدرات التي يتعاطاها في غياب لوم النفس وزوال الشعور بالذنب بما تقترفه يداه في كل عجلة أو تهور من تصرفاته تجاه أسرته، دور كبير في ازدياده عدوانية ووحشية في تعامله معهم! وبالرغم من نداءات جدة سمر بعدم التنازل عن عقوبة أب لا يستحق السماح، إلا أن ابنتها خذلتها وعادت إلى حياة ارتضتها لنفسها وبناتها الصغيرات لأنها على أمل بأنه سيتغير ويكافئها على تسامحها معه؟

الفصل السادس

أطفال في مهب الريح

سيطر الخوف على «هند» وهي تنزل درجات سلم المنزل حتى خانتها قدماها من النزول بسهولة، وبدأ الارتجاف يسري في جسدها المتهالك بعد فترة النفاس وهي تلهث خوفًا مما قد تكتشفه أمامها في الدور الأرضي المظلم إلا من ضوء خافت تشعر به يخترق قلبها وهو قادم من الغرفة الملاصقة للمطبخ. كانت تنتظر أن ترى أي شيء أمامها إلا أن ترى زوجها الذي افتقدته من غرفة النوم في ساعة متأخرة من الليل وهو يحاول الاعتداء على «الخادمة المنزلية» ويقوم بإغوائها بوريقات من المال، لكنها كانت تنزوي في زاوية من الغرفة والهلع يسيطر عليها ودموعها تتسابق على خديها الذابلين من جهد أعمال المنزل طوال اليوم، ومن وحشيته كحيوان مفترس لا يخاف الله من جرم عمله الحيواني الذي يقدم عليه كل ليل! لحظتئذ، تسمّرت «هند» في مكانها، وتمنت أن تبتلعها الأرض، أن تموت، أن تقوم بقتله، أن تصرخ من أعماقها وتهز هدأة هذا الليل وسكونه، أن تفضحه أمام أولاده، والجيران، وأهله، لأنه

لم يخف الله في نفسه، ولم يخف الله في زوجته وأولاده، لكنها خلال هذه الأفكار التي تضاربت في رأسها وقلبها اتجهت مسرعة بدون إرادة منها للدور العلوي وهي تتمنى أن ما رأته مجرد حلم مزعج وستصحو منه، لأنه كابوس فظيع يصور زوجها الوديع أمامها بأنه وحش بشري لا تهمّه سوى رغباته الجنسية التي لم يكتفِ بإشباعها من خلالها كزوجة شابة مازالت في مقتبل العمر.

ألقت «هند» بجسدها مسرعة على سريرها الكبير واختبأت تحت غطائه البارد وهي تلهث وتحاول التحكم في دقات قلبها المتلاحقة، وهي مغمضة العينين خوفًا من حضور زوجها الذي لم يشعر باكتشافها لمصيبته الليلية مع الخادمة! أغمضت عينيها وهي تسترجع بشريط ذكرياتها مع الخادمات اللاتي لا يرغبن في البقاء لديها بمجرد مرور بضعة أشهر، ما عدا إحداهن التي ظلت لديها لمدة عام كامل، وعندما اكتشفت حملها المفاجئ قامت بطردها من العمل، واتهمتها بإقامة علاقة مع عامل البلدية لأنه لا سائق لديها، ولم يخطر ببالها قط أن زوجها ذا المنصب الأمني الهام يمكن أن يقيم علاقة مع خادمة، أو أنه يبحث عن بديل جنسي يشبع رغباته المريضة من خلاله! ولم تنسَ ذلك التأييد الذي كسبته من زوجها ضد الخادمة تجاه شكوكها، وساعدها على ترحيلها بسهولة، ولم يغضب منها، ولم يتساءل عن مصدر الحمل! أو من قام بعلاقة غير شرعية مع خادمته ودخل منزله في غيابه، بل استجاب لطلب زوجته عاجلًا وقام بتسفيرها، وتذكرت «هند» حينها كيف كانت

الخادمة تنظر إلى زوجها بخوف وهي تبكي بصمت، وكيف كانت خائفة من انفعالاتها وأسئلتها عمن قام بذلك، بل ظلت تبكي بحرقة وخوف!

فجأة انسل بجسده النحيف في سريره بجانبها وأنفاسه المتلاحقة بعد صعوده الدرج مسرعًا وهو يحاول التأكد من نومها عندما قام بسحب غطاء السرير بهدوء ليرى هل ستتحرك من مكانها المنزوي وبحركتها المتقوقعة على نفسها أم لا؟ لم تتحرك «هند» من مكانها بل ظلت مغمضة العينين وتقاوم الالتفات نحوه لأنها لا تعلم ماذا ستكون ردة فعلها عندما تراه وجهًا لوجه بعد فعلته الشنيعة منذ دقائق! لا تعلم ماذا ستفعل به هل ستواجهه بما رأت بعينيها منذ برهة أم تظل صامتة لترى ماذا ستحمل لها الأيام، عسى أن تكون نزوة عابرة وستنتهي؟ هل لديها القدرة على مواجهته أم أن الخوف سوف يسيطر عليها ويعقد لسانها عن اختيار كلمات تناسب بل وتفوق الموقف نفسه حتى تعرف ما هي أسبابه لذلك؟

وعندما بدأ في النوم لأنها لم تعد تشعر بأي حركة له.. لم تتحرك من مكانها خوفًا من إحساسه بها، ظلت طوال ليلها تبكي بصمت، وتفكر ماذا ستفعل أمام هذه السلوك الحقير الذي اكتشفت زوجها ووالد أطفالها يقوم به! ماذا ستكون ردة فعلها عندما يطلبها لممارسة حقه الشرعي وهو يحاول معاشرة خادمتها؟ هل سترفض وماذا ستقدم له من مبررات لرفضها؟ خيالات مؤلمة وكثيرة تدور في مخيلتها، لكنها جميعها لا توازي حيرتها في كيفية

مواجهتها له بما رأت، هل ستناقشه صباحًا بعد ذهاب أطفالها إلى مدارسهم، أم تصمت حتى إشعار آخر؟

لم تستطع «هند» أن تواجه زوجها بما رأت، بل ظلت صامتة لشهور، كانت سلبيتها وخوفها منه كابوسًا يجثم على جسدها وصحتها وأفكارها خاصة عندما يحل الليل بهدوئه وظلامه الذي يحمل لها إشارات قوية بأن هناك شيئًا ما سيحدث! بدأت هند في الذبول لفقدانها شهيتها للأكل، وسيطر عليها الصمت طوال فترات جلوسها مع أطفالها وزوجها، تقوم بمتابعة كل أمور منزلها بصمت وحزن شديدين لاحظهما أطفالها وزوجها الذي بدأ بسؤالها: ماذا بك هل أنت مريضة؟ أجابته بنظرة ثاقبة لجسده من الأسفل للأعلى «لا.. لست مريضة»!. إذن ماذا بك؟ لم تجب، بل قامت مسرعة إلى المطبخ لتجد الخادمة العشيقة الليلية لزوجها أمامها، لتنهرها بشدة وتطلب منها الخروج لتنظيف أي مكان في البيت ولا تراها أمامها، محاولة رميها بأحد الأكواب البلاستيكية لكنها تحكمت في نفسها، ليأتي زوجها مسرعًا، ما بالك تصرخين في الخادمة، ارحمي من في الأرض يرحمك من في السماء. ولأول مرة تصرخ في وجه زوجها وهي تسأله لماذا تدافع عنها؟ ما شأنك بالخادمة؟ أنا مسؤولة عنها وليس أنت! حينئذ استغرب انفعال زوجته وهجومها عليه بالكلام، فاتجه مسرعًا نحو الباب الخارجي وقاد سيارته بسرعة عالية وقلبه يحدثه مرتجفًا: يا إلهي.. لماذا تحدثني بهذا الأسلوب! هل اكتشفت أمري؟

وأصبحت علاقة «هند» مع زوجها متوترة، لم تستطع مواجهته ولم تنكشف لها أمور أخرى لكي تتأكد بأن ما رأته حقيقة أم خيال، أو حلم مزعج داهمها ودفعها للمشي ليلًا، لأن زوجها أصبح يتهمها بأنها مريضة نفسيًا ولديها خيالات كثيرة، ووساوس ستهدد حياتهما! لقد كان ذكاء زوجها إجراميًا لأنه شعر بأن هناك أمرًا ما تخفيه زوجته عنه، لذلك سيحاول الإيقاع بها قبل أن توقع به! لأن تصرفات زوجته كشفت له ظنونها بمحاولاته الليلية مع الخادمة، لأنه رآها في إحدى الليالي وهي تنزل خلفه بخطوات بطيئة وخفيفة على درج الدور الثاني لكنه خاب ظنها لتوجهه لفناء المنزل الخارجي ليخدعها ببحثه عن أمر ما! ولاحظ نظراتها الغاضبة إليه وإلى الخادمة وهي تراقبهما، حين تحضر الخادمة طلباتهما من المطبخ، وتأكدت ظنونه من خلال صراخها وغضبها اليومي من الخادمة، لدرجة أنها طلبت منه ترحيلها لعدم ارتياحها لها بالرغم أن حالتها الصحية مرهقة لقرب موعد ولادتها!

ظلت «هند» متوترة لشهور وهي لا تعلم ماذا تفعل تجاه زوجها لأن خوفها منه منعها من المصارحة والمواجهة، لكن كما يقولون كل سكوت عن الفساد نهايته مأسوية عندما اكتشفت الطامة الكبرى بأن تحرشات زوجها بالخادمة امتدت إلى أطفالها، يا إلهي! أيعقل هذا؟ أي أب يكون هذا الذي يستغل براءة ابنته ذات العشرة أعوام وهو يتلذذ بمداعبتها في سرير نومها، ويختفي تحت غطائها الصغير، ويحاول استغلال براءتها وخوفها منه بلمس

أعضائه الحساسة لكي تثيره جنسيًا! أيعقل هذا؟ أي إجرام يسيطر على هذا الزوج الخائن والأب الغادر لأطفاله؟

لم تستطع «هند» تحمل الصدمة أكثر عندما لاحظت جلوسه ليلًا لساعات مع ابنتهما الصغيرة، ومحاولة الابتعاد بها عن أنظار والدتها، وكانت الصدمة أكبر عندما سألت ابنتها: ماذا يفعل والدك معك؟ فأجابتها: نلعب لعبة عريس وعروسه!

لم تتحمل «هند» أكثر، وانفجرت باكية في وجهه أي بشر أنت، سأخبر أهلي وأهلك، سأفضحك إذا لم تطلقني، لن أعيش معك أكثر من ذلك، لأنك وحش لا تعيش إلا على الممارسات المحرمة، مع خادمتنا وابنتنا! إنك مجرم لابد من قتلك! كان يستمع إليها وهو في صمت ويدير وجهه عنها، حتى قالها مدوية في وجهها: «لن أطلقك، ولن تأخذي أطفالي مني، ولن تستطيعي الشكوى لأي مخلوق لأنهم لن يصدقوك، وسأخبرهم بأنك مريضة نفسيًا ولديك خيالات واسعة ومريضة بسبب الحمل والإجهاد، إلى جانب أنك لن ترتضي الفضيحة لنفسك وبيتك وأطفالك!». خرج وتركها مشلولة الأفكار والمشاعر وقد ازدادت كرهًا له ورغبة في الخلاص منه في أقرب وقت، فاتجهت مسرعة إلى الهاتف واتصلت بأخيها الكبير الذي لم تسمع صوته ولم تره منذ أشهر، لوجوده في منطقة أخرى، لتخبره بمعاناتها طالبة منه الوقوف بجانبها ومساعدتها على مواجهته والتخلص منه بهدوء بدون محاكم، لكن صدمتها كانت أقوى عندما قال لها أخوها: «لا تفضحينا واستري

على زوجك وتحمليه وما عندنا في عائلتنا نساء مطلقات حتى تطلبي الطلاق، سأحاول الاتصال به ونصحه»!

أقفلت سماعة الهاتف وهي مشدودة للأرض تتمنى لو تنشق وتبلعها وترتاح مما هي فيه من آلام جسدية ونفسية، ولم تشعر بنفسها إلا وهي في المستشفى تعاني مخاض الولادة إثر نوبة إغماء داهمتها بعد محادثتها لأخيها الذي صدمها ببرودة الجامدة.

وما لبثت أن عادت «هند» مكرهة إلى المنزل بعد ثلاثة أيام في المستشفى وخوفها على ابنتها مما قد تتعرض له من أب لا يخاف الله، وظلت طوال فترة النفاس كالمراقب المجاهد في سبيل الله تحرس ابنتها من الاختلاء مع والدها، ولم تعد تهتم بالخادمة وما يجري لها من زوج مسعور لأنها كبيرة وتعرف مصلحتها وتستطيع الهرب واللجوء إلى سفارتها أو إلى أقرب مركز شرطة لكي تقدم شكوى ضده، إذا لم تكن فعلًا راضية بما يمارسه معها من علاقة محرمة.

بعد انتهاء مدة النفاس، استطاعت أن تحدد «هند» ماذا تريد بعدما اتصلت بوالدتها التي ظلت معها طوال فترة النفاس لحاجتها إلى مساعدة لظروفها الصحية، وتجاسرت بعد تفكير طويل على الاتصال بمكتب الحماية الاجتماعية بالمنطقة وشرحت لهم معاناتها ومخاوفها من الشكوى ونتيجتها على وضعها الأسري وعلى وضع أطفالها، ولكن لخطورة الوضع الذي يعيشه أطفالها تم التدخل عاجلًا في مشكلتها ولأنها لم تستطع مواجهته خوفًا من ردة فعله

الغاضبة عليها، رفضت إحالة زوجها إلى القضاء للبت في أمره خوفًا من الفضيحة لعدم وجود دليل ملموس لديها، خاصة وأن القضاء لا يستند في أحكامه إلى أقاويل أو اتهامات أطفال قد يشكك في التغرير بهم ضد والدهم، لذلك فضلت الهروب في الظلام مع والدتها وأطفالها إلى منطقة أخرى لتعيش بعيدة عنه، ويعيش أطفالها في سلام، لأن الوضع أكبر من طاقتها مع أخوة تخلوا عنها وزوج لديه من الحيل ما يكفي لإقناع من حوله بأنه ضحية زوجة غيورة وشكّاكة ومريضة نفسيًا كما يؤمن هو بذلك!

ومازالت «هند» تعيش الخوف من العودة إلى زوجها الذي لم تجرؤ أن تطلب منه الطلاق خوفًا من ردة فعل أخوتها الذكور، وخوفًا من إحساسها بالفشل لأنها طلبت منه العلاج قبل العودة إليه بأطفالها الذين قد يصبحون نسخة مكررة منه!

التفسير النفسي

إن المؤلم في قضية «هند» هو إغفالها لأبعاد سلوكيات زوجها الجنسية مع أطفالها، وعدم إدراكها أنه يجب الحرص على ألا تكون أجسادهم عرضة للملامسة الجسدية والقبلات والأحضان المستمرة بعد سن الثالثة أو الرابعة، حتى لا يتكون عندهم الارتباط الشرطي المصحوب باللذة المصاحبة للتلامس الجسدي الذاتي! لكن ما رأته أمامها من أفعال مقززة من زوجها تجاه خادمة لا حول لها ولا قوة أشعل نيران الغيرة في قلبها، وقلب سعادتها إلى تعاسة، وغفلتها إلى حالة من الحذر والتأهب اليومي لكي

تكون على علم بكل ما يمارسه زوجها مع خادمتها، لكن طامتها الكبرى عندما اكتشفت الخيانة الكبرى لأمومتها ولحياة أطفالها، وهي ترى والدهم يستغلهم كذئب بشري تحت سقف منزلهم الذي من المتوقع أن يكون سقفًا يحميهم ويوفر لهم الجو الأسري الدافئ، لذلك صرخت مشاعر الأمومة بداخلها التي أنستها خيانة زوجها لها، لكي يكون شغلها الشاغل أطفالها فقط، وكان خوفها على أطفالها سببًا لكي تنسى مشاعرها الحزينة التي سيطرت عليها كزوجة، واستسلامها للقلق النفسي الذي أذابها جسديًا ونفسيًا لإحساسها بالفشل كزوجة، لكن عندما اكتشفت وحشية زوجها الجنسية تصدت لكل الضعف بداخلها، وحاولت أن تتحرك لإنقاذ أطفالها الذين بدأوا يشعرون بالرعب لمجرد دخولهم والدهم المنزل، ويتراكضون إليها خوفًا وهلعًا رغبة منهم لكي تحميهم من محاولاته الجنسية الشاذة معهم!!

لكن «هند» المفجوعة بوضعها كزوجة، وكأم، لم تكن تعلم بأن حالة زوجها «حالة مرضية» لا يملك أمامها قوة لكي يوقف الرغبة الشيطانية التي تلح عليه لكي يشبع شهوته المريضة، وأنها نتيجة خيالات مرضية تحرك أعضاءه لاشعوريًا لكن باتجاه شاذ!

ولقد ذكر الدكتور «عادل صادق» في كتابه «في بيتنا مريض نفسي» بأن هذه الحالات الجنسية الغريبة لها ثلاث درجات من حيث الشدة:

- الحالات البسيطة Mild Cases وفيها تلح الرغبة

وتلهب الخيال، يتصورها على مستوى الخيال ولكنه لم يمارس قط هذا الانحراف.

- الحالات المتوسطة Moderate Cases وفيها يقوم الشخص في مرات قليلة بتحقيق رغبته والاستجابة لإلحاح الدافع الجنسي غير الطبيعي.
- الحالات الشديدة Severe Cases وفيها يقوم الشخص لمرات متعددة بممارسة الجنس بهذه الصورة غير السوية كلما أتيحت الفرص.

وزوج «هند» يتم تصنيفه من «الحالات الشديدة» لأنها خسرت كيلوات كثيرة من وزنها وهي تراقبه ليلًا ونهارًا خوفًا من اختلائه بأطفاله الأبرياء، ولم تدرك أسباب عدم استمتاعه بممارسة الجنس الطبيعي معها، بل يهرب منها إلى هذه الممارسات الشاذة والمحرمة!

وعلى الرغم من أنه انهار أمامها خوفًا عندما هددته بافتضاح أمره، وأن ما يقوم به بسبب اعتداء جنسي وحشي من أحد المقربين له وهو في طفولته البريئة، وصمت أمام ذلك الاعتداء خوفًا، وأن ما يقوم به مع أطفاله لاشعوريًا لأنه لم يجد من يقف بجانبه ويعرضه على العلاج النفسي، إلا أنها لم تتقبل منه أي تبرير نفسي أو تربوي، أو بيئي، أمام هذه الوحشية خاصة بأنه لا يرغب في العلاج النفسي لتلذذه بما يقوم به، لأنه حق مشروع له كأب يمارس سلطته الذكورية على أطفاله.

الفصل السابع

كيف انتصرت المرأة الحرّة؟!

لم يكن زواج «منيرة» من رجل مدمن للمخدرات برغبتها أو اختيارها، بل كان بسبب هروبها من معاملة أخيها القاسية التي حرمتها من التمتع بأبسط حقوقها، ألا وهي الالتحاق بالمدرسة وحمل الكتب الدراسية مثل بنات جيرانها اللواتي كانت تراقبهن كل يوم عند عودتهن من المدرسة ظهرًا. لا تتذكر منيرة سوى صفعة أخيها الكبير عندما أجاب على طلبها برغبتها في الدراسة وتعلم القراءة والكتابة، ولم يوافق على طلبها إلا بعدما امتنعت عن الطعام والشراب لأيام وساءت صحتها، وبعد رجاء حار من والده المسن والمريض، وافق «ناصر» على التحاق منيرة بالمدرسة القريبة من منزلهم على الرغم من أنها تجاوزت سن الدراسة! لكن إصرار منيرة ساعدها على أن تنسى وجودها مع كبيرات السن في الفترة المسائية، وجاهدت كل الصعوبات من حولها حتى وصلت إلى الصف السادس الابتدائي، ولم تحزن كثيرًا عندما رفض «ناصر» أن تكمل تعليمها للمرحلة المتوسطة، وفضل تزويجها، لأن تعليم

البنات أكثر من اللازم يجلب المشاكل ويزيد من المصاريف ويعرضها للخطر بذهابها وإيابها وهي في النهاية ستتزوج رجلًا سيكون مسؤولًا عنها! تزوجت منيرة ولم يهمها حينئذ أن ترى شكل عريسها هل هو وسيم أم قبيح، هل هو قريب من عمرها أو أكبر منها بسنوات طويلة، أين ستعيش أفي مدينتها نفسها، أم في مدينة أخرى؟ هل ستعيش في منزل لوحدها أم مع أسرة زوجها، أفكار كثيرة تتضارب في مخيلتها وهي ترتدي فستان العرس الذي أحضرته لها زوجة أخيها من أحد محلات الملابس الجاهزة، وساعدتها على ارتدائه ووضع بعض المساحيق لها لأنها عروس ولابد أن تتجمل بالقلم الأحمر فقط! وبعدما أنهت منيرة لبس طقم الذهب الذي أحضره عريسها ارتدت عباءتها السوداء فوق رأسها واتجهت مسرعة نحو الباب الخارجي، لكي تركب سيارة عريسها الذي وقف مرتديًا مشلحه الأسود بين رجال أهلها، قبل أن يودعهم واحدًا بعد الآخر ويشكر لهم حسن الضيافة والوليمة التي لم يحضرها إلا القليل من أهله لأنهم في قرية بعيدة عنهم!

استطاعت «منيرة» أن تركب السيارة بقدمين ثقيلتين من شدة الخوف الذي سيطر عليها عندما رأت عريسها وهو يستعد للركوب معها في سيارته، وسيطر عليها خوف كبير لأن شكله يوحي بأنه نسخة مكررة من أخيها «ناصر» الذي لا يختلف عنه في ملامح الوجه الكئيب، وضحكاته الشريرة، ونظراته الحادة التي لا تدل على وجود قلب رحيم بداخله كرجل تستظل به من شر أخيها.

وكان صباح «منيرة» يختلف عن كل الأيام السابقة، لأن هجوم زوجها عليها منذ انفراده بها في شقة مفروشة أوجع جسدها وقلبها، حيث لم تتجاوز الكلمات معه سوى كم عمرك؟ تعشيتِ أم لا؟ وبعدها كان هجوميًا وعنيفًا باحثًا عن عذريتها ليريح قلبه لخوفه من شك سببه كثرة تحذيرات أخيها له منها لأنها قوية وبحاجة إلى الشدة من الليلة الأولى! بعدها أيقنت منيرة أن رجلًا من طرف أخيها «ناصر» لن يكون حنونًا أو طيبًا، بل سيكون مثله أو أسوأ نتيجة تحريض أخيها له قبل الزواج وبعده مما جعله ماردًا يفرض عضلاته عليها عند أدنى سوء تفاهم يحدث بينهما.

بمرور الشهور بدأت أعراض الحمل تظهر على منيرة ولم تكن برغبتها لأنها كانت تتمنى عدم الحمل من زوج وضعه المادي ضعيف، ويتعاطى الحبوب المنشطة، هذا ما اكتشفته نتيجة لسهره غير الطبيعي وأعصابه المتوترة باستمرار ونومه الذي قد يتجاوز يومًا كاملًا ولا تستطيع إيقاظه مهما كانت الأسباب، لأنها لا تجرؤ أن تفعل ذلك خوفًا من ردة فعله، وفي الوقت نفسه لكي ترتاح من صراخه لساعات، ومن كلامه البذيء الذي يرميها به كلما رفضت معاشرته بالقوة!

ذلك اليوم كان أسود في حياة «منيرة»، وقررت بعدها الانتقام لنفسها ولطفلها الذي تحمله في أحشائها ولم يسقط على الرغم من الضرب المبرح الذي تلقته على يد زوجها ووالد طفلها، وهو يضربها بدون رحمة ويسحبها إلى دورة المياه ويحملها بين ذراعيه الصلبتين ويرميها بقوته داخل

«حوض الاستحمام» ويبدأ في صفعها وخنقها ويفتح ماء «الدوش» ببرودته على جسدها الساخن من صفعاته المتوالية على جسدها المنهك ولم توقفه صرخاتها وتوسلاتها إليه بأنها حامل، وأنها ستموت بين يديه، ولم يتوقف إلا بعدما رأى الدماء تنزف من فمها وأنفها، ليهرب خارج المنزل ويركب سيارته القديمة متجهًا إلى أسرته في الصحراء خوفًا مما قد يحدث له بعد اكتشاف أمر زوجته! فالتجارب المؤلمة التي عاشتها «منيرة» منذ طفولتها المؤلمة بمواقفها مع أخ قاس لا رحمة في قلبه، ساعدها لكي تتحمل هذا الموقف بكل ثبات لأن روح الانتقام حينها سيطرت عليها بكل ما أوتيت من قوة، حتى لو أدى بها الأمر إلى قتل زوجها وأخيها، لأنها بلغت مرحلة لم تعد للحياة لديها أي قيمة، مادامت تعيش تحت مظلة رجال طغاة لا يتقون الله في نسائهم.

تماسكت «منيرة» بعد ساعات، واستطاعت أن تخرج نفسها من الحوض، ووضعت يدها على بطنها تتحسس ما بداخل أحشائها هل سقط أم لا؟ لكن سبحان الله مازال ينبض بالحياة ولم تشعر بنزف أو علامات تدل على خطورة تهدد حملها، وقالت في نفسها «أكيد أبوه جنّي لن يموت»!

أخذت سماعة الهاتف بين يديها وهي تئن من أوجاع الكدمات في يديها وقدميها وساقيها ووجهها، وتحاول أن تتنفس بسهولة، لكي تطلب المساعدة من جارتها التي جاءت إليها مسرعة، عندما سمعت بكاءها وطلبها النجدة لكي تذهب إلى أقرب مستشفى لمعالجتها.

بعدما عاينها طبيب الطوارئ في المستشفى القريب من منزلها لم تتردد في التبليغ عن زوجها الذي قام بالاعتداء عليها، وتجاوبت بصراحة متناهية مع رجال الشرطة الذين فتحوا تحقيقًا عاجلًا معها بناء على طلب الطبيب المعالج لحالتها وبناء على موافقتها وشجاعتها في إخبارهم بكل ما يقوم به من جرائم بحقها مثل الضرب المستمر، وتعاطي المخدرات، وإجبارها لكي تتعاطى معه، وعندما ترفض يقوم بحبسها في غرفة مظلمة لأيام، والسماح لأصدقائه المتعاطين معه دخول منزله بدون احترام لخصوصية بيت الزوجية، وفي نهاية التحقيق طالبت برد اعتبارها، ورفضت تدخلات الأقارب للتنازل عن شكواها، حتى رجال التحقيق طالبوها بأن تتحمل زوجها لأنه يحبها ويريد الاستمرار معها، ولابد أن تسامحه، لأن الرجل إذا غضب يعمل الكثير، ثم يسامح وينسى، لكنها رفضت جميع تلك التبريرات التي تسمعها من رجال مثله، ورفضت توسلاته وطلباته بأن تسامحه لرغبتها في تأديبه عن تعذيبها الذي لن تنساه معه وأحالت أيامها إلى عذاب!

ولقد شعرت «منيرة» بأن ما قامت به هو انتصار لها ولكرامتها ولأنوثتها التي استُغلت منذ طفولتها عند أخيها، ثم عند زوجها الذي صممت أن لا تعود إليه أبدًا، ولقد واجهت «منيرة» صعوبات كثيرة لكي تقف أمام القاضي، لأن زوجها رفض تطليقها، لكنها لم تتوان في الاستمرار في دعواها حيث كان زوجها يرفض حضور الجلسات وسافر مختفيًا لدى أسرته في قرية بعيدة، لكنها استمرت في دعواها وطالبت القاضي أن يرسل في حضوره ولو بالقوة

الجبرية، وقامت بمراجعة مركز الشرطة، لكي تسلمهم ورقة إحضاره إلى المحكمة، وبعد شهور فازت بحصولها على ورقة طلاقها التي اعتبرتها أكبر انتصار لها ضد رجل جاهل لا يحمل ذرة احترام أو رحمة للمرأة.

التفسير النفسي

لقد كان للبيئة التي عاشت فيها «منيرة» منذ طفولتها دور كبير في التخطيط لطريق حياتها الجديد، وأن تقول «لا» لعنف زوجها، ولا تستسلم لسنوات أخرى من العذاب كبقية النساء اللواتي يخشين نظرة المجتمع إليهن قبل الانفصال وبعده، فالتجارب السيئة التي عانتها مع أخيها القاسي، خلقت بداخلها حصنًا منيعًا لرفض أي احتلال لكرامتها ومشاعرها كامرأة تبحث عن الحب والحنان والمساندة العاطفية من أقرب الناس لها، خاصة عندما تفتقد تلك المساندة من أسرتها، لأنها قررت ألّا تسمح بعد زواجها لأي رجل أن يهينها مهما كانت قرابته لها! والجميل في انتصار منيرة أنه نبع من داخلها وليس بتأثير من الآخرين للبحث عن حقوقها أو ضياع الوقت في إقناعها بما لها أو عليها من حقوق وواجبات! والأجمل أن الطاقم الاجتماعي والنفسي المتابع لحالتها من خلال فريق الحماية الأسرية لم يعانِ في إرشادها النفسي أو الاجتماعي، لكي ينير طريق منيرة القادم، بل كانت تهيّىء في مخيلتها خطوات جريئة وقوية من أجل أن تحقق لنفسها حياة كريمة، وكان لها ما أرادت لأنها كانت تحمل بداخلها «إرادة وعزيمة وإصرارًا» أنساها ما تعرضت له من تعذيب على يد

زوج ترك آثاره الجسدية عليها، لكن ظلت آثاره النفسية التي خلقت منها امرأة تجاهد من أجل الحصول على حقوقها المشروعة بيدها هي فقط! فكان انتصار منيرة بانفصالها السريع عن زوجها، ومسؤوليتها عن طفلها الذي وضعته بعد شهور من انفصالها، وفوزها بتأييد مستمر من القاضي لكي تعيش حياة كريمة وسعيدة!

الفصل الثامن

عزلة فتيات السطح

من درج السلم، في بيت أخي الطيني المتهالك، كانت خطواتي المرتبكة تسابق خطوات أخواتي ونحن نهبط مسرعات، حيث لم تتحمل مساحة السلم الضيقة أجسادنا الضعيفة المتكالبة دفعة واحدة على النفاذ، مما جعلنا نتصادم معًا وحقائبنا الصغيرة في أيدينا، وأكياس النفايات السوداء محملة بملابسنا وأغراضنا الشخصية فوق رؤوسنا. لهاث أنفاسنا يزيد من فرحتنا طلبًا للخروج إلى نور الحياة، ذلك المنتشر من الباب الخارجي إلى عيوننا المرهقة من السهر والبكاء طوال سنين مضت. أخي الصغير ينادي ويحثنا بقلق:

- يا لله بسرعة.. بسرعة. وهو يمسك بيد والدي العجوز الذي عقدت الدهشة والفرحة لسانه دون أن يعلم ما الذي يحدث أمامه، وما كان عليه سوى اللحاق بنا والنزول مع درجات السلم خطوة خطوة، ممسكًا طرف عمامته بيد، بينما يده الأخرى تمسك يد أخي القابض عليها بكل قوة وخوف، أخي «سعود» الذي تحرر فجأة من قيود الخوف

والرعب من أخي الكبير «نايف» الذي أعطانا إشارة بالنزول من السطح، والخروج إلى سيارات الشرطة التي تنتظرنا منذ ساعات.

- أنا وراك.. وراك.. والله ما تغمض لي عين حتى أنتقم منك. أطلق أخي الظالم تهديده، وهو يراني أتقدم أخواتي الأربع في النزول من الدرج، ووالدي وأخي فرحان بلحظة الفرج التي انتظرناها سنوات طويلة.

لم يكن يومًا عاديًا في حياة أخي، عندما استدعاه رجال الأمن من عمله، لكي يسمح لهم بأخذنا إلى الدار، فكان في استقباله عشرات من رجال الأمن ونساء مرافقات ينتظرونه في شارعنا الضيق، فرفض دخولهم حتى يتأكد من حقيقة الأمر الذي أصدره الحاكم بسحبنا وإيداعنا الدار بعد شكوى قدمتها هاتفيًا لإدارة الحماية الأسرية، لم يتوقع أخي أن ملكيته لنا سوف تنتهي يومًا أمام قوة السلطات التي تعايشت مع معاناتنا خلال العامين الماضيين.

لقد جلس وجهًا لوجه أمام مندوب الحاكم في مجلس الرجال الصغير، ونحن نترقب من فوق درج بيته ونستمع ماذا ستكون ردة فعله، أخذ يتصفح أمر التنفيذ وبعد ساعة ونصف الساعة من المداولة والنقاش قرر أن يسمح لنا بالنزول من السطح بل من «السجن» الذي استعبدنا فيه هو وزوجته وأولاده.

خرجنا دفعة واحدة إلى الباب الخارجي لم ألتفت حينئذ إلى الخلف، لا أرى ماذا عن يميني أو يساري، لا أسمع سوى أصوات أخواتي الخائفات، حيث كان ابن

أخي يترقبنا بعينين يتطاير منهما الغضب، فكانت رسالة غزت قلوبنا لكنها لم تلتقِ نظراتنا الخائفة، فكان الغطاء الأسود يستر خوف نظراتنا أمام نظراته الشرسة، لم نرَ أمامنا سوى نور الشمس القادم من الخارج وهو يمتد طوال طريقنا داخل المنزل حتى اخترق قلوبنا المرعوبة من عدم إتمام تلك اللحظة على خير. لم نرَ أمامنا سوى فتحة نصف الباب الخارجي لكي تقذف بأجسادنا الهزيلة إلى الخارج!

تسابقنا.. وتزاحمنا على الدرج الخارجي لمنزل أخي، وكانت حقائبنا حينئذ كالريشة في أيدينا النحيفة، فالفرحة حملتنا وطارت بنا بقوة حتى ركبنا بجانب الباحثة التي فرحت بقدومنا سالمات وبهدوء! بعدما قذفنا بأغراضنا الصغيرة في مؤخرة السيارة طلبًا للهروب بسرعة من ذلك الشارع المظلم بمنازله الطينية القديمة، وسكانه المهمومين بمشاكلهم، وجيراننا الذين لم يشعروا بنا ونحن حبيسات سطح لسنوات طويلة فلم يكن منهم سوى مشاهدة الحدث أمامهم والدهشة تعلو وجوههم وتعقد ألسنتهم.

وقوف «أخي الظالم في الشارع» أمام هذه القوة الأمنية التي جاءت تنقذنا من ظلمه جعلته كسيرًا ومقهورًا، والشرر الذي تطاير من عينيه دخل قلبي مع سماع تهديده الذي قصد أن يسمعني إياه!

أختي الصغرى «سارة» اختنقت عبارات الفرحة بداخلها فخاطبت الأخصائية:

- تراني ما نمت من أمس يوم عرفت أنك ستحضرين وتأخذيننا من السجن!

أما أختي الوسطى «صيته» التي تئن وتشكو لليالٍ طويلة من الآلام الحادة في أسنانها تكلمت بصعوبة تخاطب الأخصائية:

ـ وشلونك يا أخيتي؟. قولي آمين، الله يفتحها في وجهك، ويخلي لك عيالك، تراني أنا ما نمت ولا أكلت من يومين، أفكر صحيح بنطلع من ها لسطح؟ وإلا بنجلس طول عمرنا فيه حتى نموت؟... وإذا ما طلعنا كيف أعالج أسناني المتكسرة ولثتي اللي تنزف دم، وما لقيت أحد يراجع بي الدكتور؟

منظر أبي المندهش بما يجري قد أحزن رجال الشرطة ومرافقاتهم والباحثين، حيث كان فاتحًا فاه، لا يعلم إلى أين سيذهب، يمسك بيد أخي الصغير «سعود» بقوة وخوف، ويمسك بشماغه على رأسه ويردد بعبارات مخنوقة:

ـ حسبي الله على الظالم.

كانت نظرات أبي غير مستقرة وهو يلتفت يمينًا وشمالًا، مرعوبًا حيث يرى الشارع غاصًا بسيارات الشرطة، الذين حينما رأوه تسابقوا نحوه لمساعدته على الركوب في إحدى سياراتهم، ورفض أن يركب السيارة وتراجع للخلف بسرعة يريد اللحاق بأخي الصغير عندما رآه يعود مرة أخرى مفزوعًا إلى المنزل ولحق به خائفًا وهو يناديه:

ـ سعود.. سعود.. لا تتركني وتروح.

حاول رجال الشرطة طمأنته، لكنهم فشلوا في ذلك،

ولم يهدأ حتى رأى أخي يعود من جديد، بيده كيس نايلون فيه أغراضه الشخصية وقد نسيه في أحد أركان سطحنا الصغير!

عاد أخي وكيسه الأسود على صدره يحمله بكل خوف وهو يركض خوفًا من هجوم يفاجئه من الداخل، وعندما رآه والدي قادمًا ابتسم بخوف، وعاد الأمل إلى قلبي من جديد.

كانت لحظة سريعة، لكنها أسقطت قلوبنا في أيدينا خوفًا على أخينا الصغير من أخي الظالم ومن أبنائه الذين دائمًا يتعرضون له بالضرب والشتم والإهانات رغم أنه عمهم الصغير!

ولكن.. مستحيل أن يغامروا بالقيام بأي أذى لنا ورجال الشرطة يملأون المكان، ونحن الفتيات في سيارة الحماية الأسرية، ولن يجرؤ بعد اليوم أن يقف أخي «نايف» أمام القاضي بثقة ولي الأمر بعدما انكشفت قسوته لنا وعقوقه لأبينا المسكين، أو أن يخاطر ويعيق ذهابنا مرة أخرى مثل ما حدث العام الماضي!

وقد أدهشني تصرفه التمثيلي عندما قام بالسلام على أبي وتقبيل رأسه أمام الجميع طالبًا منه «السماح»!

قدرته على التمثيل وافتعال الطيبة والرحمة لا يكتشفها الآخرون بسهولة، فمنذ لحظات كان يودعنا عندما وصلنا إلى آخر عتبة من سلم منزله المظلم بدعوات شيطانية:

- روحوا الله لا يردكم.. نار تأكلكم كلكم. ثم أضاف وهو يشتم أبي: انقلع يا شايب إبليس.

تحركت إحدى سيارات الشرطة خلف سيارة الحماية التي ركبنا فيها لحراستنا من تعقب أحد أبناء أخي خلفنا، ومنعًا لمعرفتهم للمكان الذي سنعيش فيه، وسيارة أخرى خلف السيارة التي ركب فيها والدي مع أخي الصغير لذهابهم للعيش في دار خاصة بالرجال فقط، وبذلك سننفصل نحن البنات عن أبي وأخي لأول مرة. كنت أراقب سيارتهم بقلبي حتى افترقنا عند أحد الشوارع الرئيسية، فهم سيتجهون غرب المدينة، ونحن سنتجه شرقًا، فكانت الشوارع واسعة، والشمس تشع نورًا يختلف عن الشمس التي كنت لا أرى منها إلا بصيصًا خفيفًا يتسلل من جدران حديدية عالية تحيط بسطح أخي، هذا النور دخل إلى قلبي المظلم بمشاعر الكره والحقد على أخي الذي قتل أحلامنا لسنوات طويلة، وقتل طفولة أخواتي الصغيرات، وحرمنا من العيش مع والدتنا ووالدي في مكان يشعرنا فيه بآدميتنا!

لا أسمع الآن سوى نداء قلبي، وغابت عني أصوات أخواتي وحديثهن الفرح مع الباحثات وهن يسألن بقلق:

ـ أين سنذهب وأين سننام؟

ـ متى سنأكل؟

ـ من سيعيش معنا؟

بينما كنت شاردة، كانت أسئلة أخواتي تنهمر على الباحثة، التي ترد على أسئلتهن بابتسامة، وكلما توقفت أسئلتهن كانت تخبرنا بأسماء الشوارع، والأحياء، والمراكز التجارية الكبيرة التي لم نرها في حارتنا القديمة، حيث لا

نرى سوى بعض البقالات الصغيرة، ومركز تجاري بسيط للحي كله. اقتربنا من المكان الذي سنعيش فيه إلى أن يكتب الله لنا فرجًا من عنده، كان الشكل الخارجي للمبنى مطمئنًا ومريحًا.

وقبل نزولنا قالت لنا الباحثة سلوى:

ـ هذا المكان هو سكن حكومي للحالات التي تتعرض للعنف من أحد أفراد أسرتها، العيش فيه موقت حتى تنتهي مشكلة كل واحدة منهن، وأنتن ستعشن في هذه الدار حتى تنتهي مشكلتكن مع أخيكن، لكن لابد أن تعلمن أن الدار يحكمها نظام.. لابد من التقيد به منعًا للفوضى والمشاكل بين الساكنات فيه.

ثم أضافت الأخصائية سعاد:

ـ طبعًا لأنه ليس سكنًا خاصًا بكن لابد أن تعلمن أن النوم لساعات متأخرة من النهار ممنوع، يعني السهر بدون سبب ممنوع.

قاطعتها الباحثة سلوى:

ـ الطعام أيضًا له موعد، وكذلك الخروج إلى الحديقة، والتسوق وزيارة الطبيب، كل شيء في الدار له مواعيد.

وافقت سعاد بهز رأسها وهي توضح:

ـ حتى الزيارات تحددها مشرفة الدار وفق مواعيد وخلال أيام الأسبوع صباحًا فقط، ولا تخرجن من الدار إلا للضرورة، مثل الخروج إلى المحكمة لمتابعة قضيتكن!

سألتها أختي سارة:

- يعني نسكن هنا دائمًا، وما نشوف أبوي ولا أخوي؟

قالت الأخصائية سعاد:

- لا طبعًا، تعشن هنا إلى أن يتوافر لكن سكن خاص، وتعشن معًا إنشاء الله.

قلت بفرح وطمأنينة:

- كل ذلك مقبول.. ويهون عن حياتنا التي ضاعت في سطح أخي الظالم.

جريرة طفولة بعيدة

خمسة عشر عامًا من عمر «نورة» قضتها في سطح منزل أخيها الكبير «نايف» وعمرها يزحف نحو الثلاثين بدون تعليم، أو زواج، فكانت الأم والأب لأخواتها الثلاث «مزنة، وصيته، وسارة» وأخويها الصغيرين «سعود» و«مبارك» اللذين تركتهما والدتهما رغمًا عنها وهما في سن الرضاعة خوفًا من بطش أخيهم «نايف»! ووالدهم الذي شارف الستين، وحالته النفسية أدت إلى ملازمته «مرتبة بالية» على أرض السطح الإسمنتية!

عمر «نورة» مضى في حساب الأيام لكي ترى النور، وتخرج من ظلام هذا السطح الذي يجمعها مع إخوتها ووالدها وهم يفترشون أرضه خوفًا من صراخ زوجة أخيها وبناته اللاتي يستخدمنهن بالتناوب!

يومًا تنزل «مزنة» لكي تغسل الصحون، ويومًا تنظف سارة نفايات البيت، ويومًا تنزل «نورة» لكي تطبخ لهم وجبات اليوم كله! كل هذا من أجل رضا أخيهن الكبير وأهله الذين ينعمون بنوم مريح، وطعام طيب، وتزاور مع الجيران والأقارب! لكن «نورة» وعائلتها الصغيرة محسوب عليها كل خطوة تخطوها من أول درج السطح!

لم تكن تعلم «نورة» أن غلطة عمرها وهي في بداية مرحلة المراهقة ستدفع ثمنها لسنوات طويلة، عندما خرجت مع أحد أقاربها وقبض عليهما «رجال الهيئة» وأرسلوها إلى «إصلاحية الفتيات» ونالت عقابًا بالسجن لمدة شهر، وجلدها 100 جلدة، لتخرج بعد ذلك إلى سجن أخيها «نايف» الذي دام 15 عامًا! ولم تكن لوحدها بل عوقب أخواتها الصغيرات، وأخواها، ووالدها الذي قضى سنوات عجزه في سطح محاط بالصفيح!

هكذا إذن، عوقب معها والدها المسنّ الذي داهمه المرض النفسي نتيجة العزلة التي عاناها لسنوات طويلة في سطح منزل ابنه «العاق»... وعوقبت أخواتها الصغيرات اللاتي حرمن من حضن والدتهن المسكينة التي تم طردها كعقاب لها على عدم تربيتها لبناتها التربية التي تحميهن من كلمات الشباب المعسولة!

كما عوقب معها أخواها الصغيران، وأصبحت «نورة» أمًا لهما.. بل أمّ جميع من معها بالسطح!

بعد 15 عامًا بدأت تفكر «نورة» كيف تتخلص من

ظلم أخيها وأبنائه، عندما شاهدت في جهاز التلفاز الصغير الذي أمامها برنامجًا عن مساعدة النساء والأطفال المتعرضين للعنف، وما هي الخدمات المقدمة لهم حتى يصلوا إلى الأمان الذي يتمنونه! قامت «نورة» بسرعة جنونية وسجلت رقم البرنامج بقلمها الرصاص على ورقة مقطوعة من سجل أخيها «سعود» الدراسي.. واتصلت فورًا بالأرقام التي أمامها لكن لا مجيب.. ومرة أخرى.. لا مجيب أيضًا! انتبهت إلى أنها تتصل بعد الساعة العاشرة مساء، أي بعد انتهاء البرنامج!

سأسهر للصباح.. قالتها «نورة» لأبيها بكل قوة، وأتصل بهم، لعلهم يستطيعون مساعدتنا يا أبي.. وترى نور السماء، وتراب الأرض، وتخرج من هذا الصفيح الذي تعيش فيه، بالرغم من عقاراتك التي لا تنعم بالعيش فيها معززًا مكرمًا!

طبعًا يا أبي: لابد أن أتصل بهم وأطلب الخلاص من هذا الظلم الذي طالنا لسنوات طويلة بدون رحمة ولا خوف من الله، ولا مراعاة لحالك الضعيف!

نورة تحدث نفسها بإصرار: طبعًا سأتصل بهم مهما كانت النتائج.. لابد أن أطلب مساعدتهم للخروج من هذا السجن الذي لم ينتهِ بعد، لأننا مشتاقون إلى والدتنا المسكينة التي لا نستطيع رؤيتها منذ سنوات، ولم نجد سوى جهاز المحمول عونًا لنا على الاتصال بها على فترات وبالخفية حتى لا يكتشف أحد وسيلة اتصالنا بها!

سأطلب المساعدة لكي ننعم بالانتقال إلى منزل أبينا الذي يسكنه مستأجرون غرباء..! وأنام في غرفة نوم مستقلة عن أجساد أخوتي وجسد والدي النحيف.. حيث تلتصق أجسادنا بعضها ببعض على سجادة واحدة في ركن من السطح الصغير!

أكيد هذه المساعدة قد تنقذنا من هوان تتعرض له أجسادنا من الأعباء المنزلية التي تكلفنا بها زوجة أخينا من الفجر حتى ساعات متأخرة من الليل... وتنزع الخوف من قلوبنا، وخاصة أنني بالرغم من تقدمي بالعمر مازلت «أبول» على نفسي كلما سمعت صوت أخي مناديًا بغضب وكره لنا بقوله:.

ـ وينك.. يا نوره.. يا أم الرجاجيل!

لذلك عندما اتصلت «نوره» بمكتب الحماية الأسرية بشجاعة ممزوجة بخوف مما قد يحدث، كانت تتساءل بصمت: ماذا سيكون حالها إذا جاءوا مستجيبين لشكواها؟ هل سيطردهم أخوها الذي لا يخاف الله فيهم؟ فكيف سيخاف من البشر؟ أم سيرفض كل التهم الموجهة إليه من عنف، وظلم، وتجويع، وقهر؟! هل سنخرج خلال أيام؟ أم أسابيع؟ أم لا نخرج نهائيًا؟ وسيزيد بعدها الصاع صاعين في ظلمه لنا؟ لكن بعدها بشهور رأت «نورة» ووالدها وأخوتها النور من فتحة باب أخيها الحديدي القديم، إلى عالم أكبر.. وأكثر اتساعًا.. وتنهدت أخيرًا نوره فرحةً بانتصارها، عندما توقفت السيارة بها مع أخواتها عند باب الدار.

التفسير النفسي

لقد عاشت نورة أيامًا أصعب من الأيام التي عاشتها في سطح أخيها عندما اكتشفت أن إخوتها لم يستطيعوا أن يتقبلوا بعضهم بعضًا بعدما منحوا حرية حرموا منها منذ صغرهم، حيث كانت في السابق تقاوم خوفها من أخيها الكبير لعنفه وجبروته معهم، لكنها الآن تقاوم أكثر من نسخة مكررة لشخصية أخيها الكبير «نايف» حيث بدأ إخوتها يتقمصون شخصيته في التسلط وفرض الرأي، وعدم تقبل الآخر، والدفاع عن النفس بالقوة لأي موقف، فكانت أيامًا قاسية على نورة وهي ترى إخوتها الذكور الصغار يقلدون أخاها الكبير في كل شيء لاشعوريًا، ويهددون بعضهم بعضًا بشخصه الكريه القاسي، حيث مازال شبحه يطاردهم في كل مكان، ويعتبرونه الضابط لكل خطأ في أفعالهم أو أقوالهم حتى لو استخدم الضرب والحبس والتجويع!

ولم تتوقع «نورة» بالرغم من سلطتها البسيطة على إخوتها وشخصيتها القوية بعد تحديها لظلم أخيها، أن تجد صعوبة في تقبل أمها التي حرمت منها سنوات مراهقتها، ولم تتوقع أن القسوة التي عاشتها في بيت أخيها تحرمها من الإحساس بعاطفة الأم بل وترفضها! لأنها عاشت طوال سنوات مراهقتها أمًا ومربية لإخوتها الصغار، وممرضة لوالدها المسنّ، لذلك عندما قابلت والدتها بعد سنوات الحرمان من عاطفتها لم تستطع أن تبادلها حتى الفرحة بمقابلتها! لكنها حتى لا تشعر بالذنب تجاه والدتها المسلوبة في شخصيتها تجاههم منذ صغرهم، بل أكملت

دورها كمدبرة لحياة إخوتها وشؤونهم في الحياة، خاصة أن إحساسها بالقهر لم يعد يسيطر عليها كالسابق، لأنها تحررت من ظلم وظلام «نايف» إلى الأبد، ولم ترضَ أن تكون حبيسة له مثل إخوتها، وإن كانت تسيطر عليها في لحظات الغضب مشاعر الكره تجاه والدتها التي لم تقاوم الظروف لكي تحميهم من ظلم أخيها، بل هربت بسلبيتها وخوفها إلى قريتها البعيدة عنهم خوفًا على نفسها، لأنها لم تفكر حتى في إبلاغ الشرطة عن حالتهم خوفًا من الفضيحة أمام قبيلتهم الكبيرة، وكذلك سيطرت السمات التسلطية على شخصيتها تجاه إخوتها الذين تحملت مسؤوليتهم منذ صغرهم، إلا أنها سرعان ما تستيقظ من كابوس الماضي وترفضه بكل قوة، لعلها تجمع إخوتها على حب وسلام لم يعيشوهما منذ صغرهم!

الفصل التاسع

طفولة معذّبة

لم تكن أيام الصغير «فيصل» ذي العشر سنوات أيامًا عادية، بعدما هربت والدته من المنزل، بعد خلاف حاد مع والده، وتركته وحيدًا مسؤولًا عن أخته الصغيرة ذات العامين التي أصبحت شغله الشاغل، ونسي مشكلته الأساسية من فقده لأعز الناس له «أمه» التي كانت تطعمه وقت جوعه، وتنتظر عودته من المدرسة وتضمه إلى صدرها عندما يمرض، وتنام بجانبه في غرفته عندما تهرب من والده ليلًا لسلوكه العدواني الذي لا يشعرها بالأمان الزوجي معه! كانت أيامًا كئيبة ومخيفة عاشها «فيصل» منذ خروج والدته من المنزل خوفًا من تهديدات والده الذي يتعرض لها بالضرب والسب والشتم باستمرار، لكنها تتحمل وتصبر، لأجل أطفالها، لكن صبرها لم يجدِ نفعًا، بل زاد الأمر سوءًا بالرغم من مرور عشر سنوات على زواجهما، لكن تقدمت السنوات وكبر فيصل على معاملة والده السيئة لوالدته، ولكنه لا يعلم لماذا هذا العنف من والده الذي نشر الخوف في منزلهم الصغير، وأسكته عن التعبير عما

يجول في خاطره عند حضور والده إلى المنزل، فالصمت المخيف يسيطر على فيصل بمجرد دخول والده وبدئه في المشادات الكلامية مع والدته لأمر لا يعجبه، وخوفًا من تعرضه لأي أذى من والده!

لقد أصبح المنزل الآن أكثر هدوءًا بعد هروب والدته للعيش لدى والدها، أكثر هدوءًا لأن والده التزم الصمت من الدهشة التي عقدت لسانه لخروج والدته وتركها لطفليها الصغيرين تحت رعايته، الدهشة عقدت لسان والده لأنه لم يفكر يومًا بأن زوجته ستقدم على هذه الخطوة الجريئة، وتترك طفليها، وهي لم تتحمل شخصيته الغريبة إلا من أجلهما! هذه الخطوة الجريئة من والدة فيصل أدت إلى خوف الأب من ردة فعل أسرة زوجته التي لا تعلم طوال السنوات الماضية بمشاكله وتصرفاته العدوانية مع ابنتهم! لكن هذا الهدوء الذي عمّ أرجاء البيت نشر الخوف والرعب في قلب «فيصل» الصغير، خاصة في الليل عندما يخلد إلى النوم، وأخته الصغيرة تبكي بحرقة بحثًا عن دفء والدتها، وبحثًا عن ثديها التي تلقمها إياه لإشباع جوعها وإحساسها بالأمان الذي يجلب لها النوم المريح بسهولة! ومع صراخها المستمر ليلًا يحاول «فيصل» إسكاتها خوفًا من ردة فعل والده، فيقوم بملء «زجاجة الحليب» أحيانًا بالماء لكنه لا يسكتها، وأحيانًا بالحليب الذي لا يعلم كيف يعده لأخته مما يزيد من بكائها حتى تنام من التعب!

ولم يتوقع «فيصل» الذي ترك المدرسة من أجل رعاية أخته الصغيرة أن الخلاف سيطول بين والديه، وأن

والده يرفض إرجاعها إلى المنزل حتى لا يوافق على شروطها التي طلبتها من والدها لكي يخبره بها، والتي من أهمها: أن لا يتعرض لها بالضرب أبدًا وإلا عليه أن يطلقها بدون مقابل وتكون حضانة الأطفال من حقها لأنهم بحاجة إلى رعايتها. وأن يقدم لها نفقة شهرية تلبي احتياجاتها واحتياجات أبنائها! وألّا يمنعها من الخروج لزيارة أسرتها كل أسبوع، لأنها محرومة من التواصل مع الناس من حولها، وتشعر بأنها وحيدة في هذا العالم الغريب من حولها! ومرت الشهور ولم يرَ «فيصل» والدته خلالها، مما أساء إلى حالته النفسية والصحية، وبدأ في النحول والشحوب لقلة الطعام الذي يحضره والده من المطاعم! ولم يشفع له صبره على وضعه، وخوفه من والده، بأن تفكر فيه والدته وتسأل وتدافع عنه وعن أخته الصغيرة التي تبدلت حالتها الصحية للأسوأ، ولم يفكر «فيصل» بأن الذي سيبحث عنه ويسأل عن غيابه هو معلمه في المدرسة الذي أقلقه غياب الطالب الهادئ بدون أي عذر، بل إن غيابه المفاجئ أشعل في قلبه الكثير من القلق حيال «فيصل» فقد يكون في خطر، أو مريض، أو أي سوء منعه من الحضور إلى المدرسة! لذلك توجه معلم فيصل إلى المرشد الطلابي للمدرسة، وطلب منه تكرار الاتصال بمنزل فيصل لعله يجد ردًا على سؤاله، لمعرفة سبب غياب تلميذه عن المدرسة، وكبح مخاوفه من احتمال تعرضه لأذى من والده، لأن معلمه قريب منه وعلى اطلاع على سلوك والد طالبه العدواني!

أمسك المرشد الطلابي بسماعة الهاتف وهو يقول

للمعلم: سأتصل هذا اليوم للمرة الأخيرة، وإذا لم نجد مجيبًا على اتصالنا، لابد أن نكتب خطابًا لمدير المدرسة نطلب رفع الأمر إلى شرطة الحي لكي يساعدونا على الوصول إلى «فيصل».

بعدما رن الهاتف أربع رنات، رفع فيصل السماعة وأجاب بصوت مرتجف: آلو.. نعم؟

فأجابه صوت المرشد عاجلًا: فيصل أين أنت، لماذا متغيب عن المدرسة طوال هذه الفترة؟ ما بك؟ هل أنت مريض؟ هل والدك مريض؟ أو والدتك؟

وكان الصغير «فيصل» صامتًا، وهو يسمع أسئلة المرشد المتلاحقة، ويبكي بألم ولم يستطع الإجابة!

وعندما سمع المرشد بكاء فيصل المخنوق سأله: لماذا تبكي، ما بك؟ أجبني؟

حينها تناول المعلم سماعة الهاتف بسرعة وتكلم بلهفة مع طالبه: أين أنت يا فيصل، سلامات؟

واستطاع فيصل أن يقاوم دموعه، وخوفه من حضور والده وهو يتكلم بالهاتف بعد إرجاعه للجهاز بعدما تحفظ عليه لأسابيع خوفًا من تواصل فيصل مع والدته.

فأجاب فيصل معلمه المقرب لقلبه ويتمناه والدًا له: أستاذ.. أمي تركتني وحيدًا مع أختي الصغيرة، بعدما ضربها والدي بشدة، ولا أستطيع الحضور إلى المدرسة لأنني مسؤول عن أختي، ولا أحد عندنا بالمنزل، إنني خائف،

وتعبان، أريد أمي، وعاد يبكي بشدة، وأغلق سماعة الهاتف خائفًا ليركض مختبئًا في غرفته مع أخته التي ما زالت نائمة بعد سهرها طوال الليل بجانبها!

أحس فيصل بالراحة لأنه تكلم مع معلمه، وأن هناك من يسأل عنه، وشعر بغيابه عن المدرسة، وبدأ يفكر في والدته، أكيد أنها حاولت تتصل به لكن والده يخبئ الجهاز لأيام، واليوم نسيه لظرف طارئ دفعه للخروج من المنزل مبكرًا، ولم يعلم ماذا يوجد له من فطور يسد جوعه أم لا؟ وبدأ يفكر ويتمنى بداخله أن تتصل والدته في أسرع وقت ممكن وقبل عودة والده!

لكن لا اتصال من والدته.. وعاد والده ظهرًا، وهو يحمل أكياس الغداء بيديه ويرميها على أرضية المطبخ، لكي يجهزها «فيصل» له، وبعدما قام الصغير بإحضار سفرة الطعام وفرشها أرضًا، وصفّ الأكياس بجانبه، قام بسكب الأرز في صينية بلاستيكية كبيرة، واللبن في كؤوس صغيرة قديمة، والسلطة الخضراء المقطعة من المطعم فوق الأرز، وبالرغم من ذلك بدأ يأكل والده بنهم ولا ينظر إلى ابنه الصغير أو يدعوه لمشاركته في الطعام، حتى فيصل لم يحاول مشاركة والده وذلك خوفًا من ملاحظته لدموعه التي أثرت في صفاء عينيه الجميلتين، ثم يسأله ما بك؟ حينها سيتكلم عن مكالمة معلمه له ولن يستطيع الكذب على والده الذي يرتجف منه خوفًا! ولم ينتبه لنفسه إلا بعدما صرخ في وجهه والده عندما سأله: ما بك لماذا لا تأكل، هل تفكر في أمك يا المدلل! أنت مثل البنات وليس مثلي رجل

قوي، ولتعلم أنك لن ترى والدتك أبدًا، وسأتزوج امرأة أجمل من أمك لكي تكون مسؤولة عنا الأسبوع القادم!

هذه الكلمات الغاضبة السريعة التي رماها والد فيصل كالقنابل في وجهه لم تمر مرور الكرام، بل أقلقت الطفل كثيرًا ودبّ الرعب في قلبه أكثر، وظل طوال الليل قلقًا وخائفًا من حضور امرأة أخرى مكان والدته، وراح يتساءل عن شكل هذه الزوجة، أو من هي؟ وكيف ستعامله وأخته؟ إلى غيرها من الأفكار التي حرمته تناول طعامه وظل جائعًا طوال ليله حتى الصباح، وقام توًا بعد ذهاب والده إلى العمل وإقفاله لباب الشقة عدة مرات، ليبحث عن جهاز الهاتف في المجلس، وفرح كثيرًا عندما وجده في درج مكتبة التلفاز، ليتصل سريعًا برقم المدرسة الذي دوّنه في كتاب المطالعة عندما طلب منه معلمه تدوينه ليتصل به عندما يحتاج إليه!

فأدار «فيصل» رقم المدرسة بسرعة وهو يرتجف، وعندما سمع صوت المرشد الطلابي، أخذ في البكاء وطلب منهم الحضور لأخذه إلى والدته التي لا يعلم أين هي؟ وأقفل السماعة خوفًا من حضور والده فجأة.

وجلس «فيصل» ينتظر حضور معلمه ومرشد المدرسة حتى اليوم التالي، لأنه لم يكن يعلم بأن هناك إجراءات لابد من اتخاذها قبل الحضور إليه من الجهات المسؤولة عن حمايته والتحقق من الأذى الواقع عليه، لذلك لم يتوقع أنه في صباح اليوم التالي يسمع جرس باب شقتهم متواصلًا، فبدأت أنفاسه تتلاحق، وضربات قلبه الصغير

ترتفع وذلك لإحساسه بأن هناك أمرًا غير طبيعي يحدث عند الباب، لأن هناك أصوات رجال اختلطت بصوت والده الذي بدأ في الارتفاع وهو يجيب الزائرين عند الباب بقوله: «فيصل بخير، وهو ابني وأنا المسؤول عنه، ولن أسمح لكم بدخول المنزل إلا بأمر رسمي». وبدأ الخوف يسيطر عليه عندما سمع والده يجيب السائل عند الباب الذي لا يعلم من هو «من اتصل بكم؟ من أخبركم بأن فيصل لا يذهب إلى المدرسة، هل هي والدته تشكوني لديكم؟» لذلك خابت توقعات الطفل الصغير، لأن والده أقفل الباب منهيًا حديثه بكل عصبية وهو يتهدد والدته بأنه لن يسكت لها؟ وبأنه لن يطلقها طوال عمرها حتى تشيخ عند أهلها، وأنها لن ترى أطفالها طوال حياتها! وعندما شعر فيصل بقدوم والده أسرع إلى غرفته وتظاهر بالنوم بجانب أخته الصغيرة النائمة حينذاك، فأيقظه والده بركلة على جسده الصغير ليسأله: هل اتصلت بك أمك؟ هل زارتك في المنزل وأنا غير موجود؟ ولم يستطع فيصل حينئذ الإجابة إلا بهزة من رأسه الصغير نافيًا كل ذلك، لكن والده مازال يهدد ويتوعد من هو السبب في هذه الشكوى ضده!

لكن صباح اليوم التالي كان يومًا سعيدًا في حياة فيصل، عندما رأى أشخاصًا لأول مرة يدخلون منزلهم الصغير، ونساء ألقين التحية عليه ودخلن غرفته الصغيرة للاطمئنان على وضعه المحزن، ولأول مرة يسمع «فيصل» أن هناك جهة مسؤولة عن الأطفال المتضررين من انفصال والديهم، ومسؤولة عن رفع الأذى عنهم، ومساعدتهم على تحقيق ما يسعدهم، وفرح كثيرًا عندما قالت له إحدى

النساء: فيصل أنت لا تعرفنا وهذه لأول مرة ترانا لأننا حضرنا بناء على اتصال من مدرستك تشكو وضعك الحالي، وعن تغيبك عنها، وأن هناك أمرًا طارئًا يسيء لك.

وبعدما اطمأن فيصل لأسلوب المرأة التي أخذت تطمئنه بأنها ستساعده، وبعدما عرفته باسمها ووظيفتها وأنها أخصائية نفسية حضرت لكي تطمئن إليه وتدرس وضعه، وهل هو فعلًا متضرر هو وأخته من بقائهما مع والده أو أنه يريد الذهاب إلى والدته، لكنه لم يستطع الصمت أمام ذلك، بل طلب منها بشدة أن تأخذه إلى والدته سريعًا، هو وأخته الصغيرة التي افتقدت والدتها ولا يعلم كيف يطعمها وينظفها ويسكتها وهي تبكي طوال الوقت، وكيف يلاعبها لأنه يخاف من حملها!

كان ذلك اليوم حزينًا بالنسبة للأخصائيات الاجتماعيات والنفسيات اللاتي حضرن برفقة رجال الشرطة لدخول منزل والد فيصل بناء على أمر رسمي للتحقق من خطاب المدرسة بأن الطالب فيصل في خطر، وأن والده كان غير متعاون معها في صباح الأمس للتأكد من سلامة الطفل، ومعرفة سبب انقطاعه عن المدرسة فجأة!

حينئذ لم تستطع إحدى الأخصائيات مغالبة دموعها، وهي ترى الوضع المزري لطفل أصبح مسؤولًا عن طفلة رضيعه، فأشاحت بوجهها عنه يمينًا وشمالًا حتى لا يلاحظ تأثرها، وهو ينتظر منها الوقوف إلى جانبه! لقد كان منظرًا حزينًا ومؤثرًا، عندما رأت ملابس «فيصل» متناثرة بجانب فراشه الصغير الذي تشترك معه أخته الرضيعة في النوم

عليه، وعلب الحليب والعصير الفارغة متناثرة من حوله، وكانت القذارة تعم المنزل وخاصة المطبخ الذي تتكدس في حوضه الأواني التي يستعملها والده، وكؤوس الشاي، وتلك الثلاجة الفارغة من الطعام الصحي وممتلئة بعلب الكولا والبيبسي وبقايا مأكولات المطاعم التي يحضرها والده!

كان الوضع لا يحتمل التأجيل ليوم آخر، لأن صحة الطفلين في تدهور إلى جانب افتقادهما للأمان مع أب يقضي معظم وقته خارج المنزل، لذلك بدأت النقاشات تطول وتطول مع الأب في ضرورة أخذ الطفلين من المنزل وتسليمهما لوالدتهما، أو أخذهما إلى دار الأطفال لكي يتلقيا الرعاية اللازمة لهما، وفي حالة رفض الأب سيتم مخاطبة الحاكم الإداري بالمنطقة لكي يدعم طلبهم وتسليم الطفلين لوالدتهما لأنها أحق بهما من أي شخص آخر، ولكن الأب في البداية رفض خوفًا من إحساسه بالهزيمة أمام زوجته التي لم ترضخ لضغوطه عليها، ولم تعد إلى منزله الكئيب ومعاملته الشرسة، وبعد مشاورات دامت لساعات اقتنع بما رآه فريق الحماية الأسرية ووافق على أخذهما إلى دار الطفل حتى يقول القضاء رأيه بحق من أولى برعايتهما هو أم والدتهما!

كان فيصل وقتها صامتًا ولم يتحرك من مكانه إلا عندما أمره والده بالذهاب معهم لكي يجد من يهتم به، كانت سعادته مكتومة بداخله وتعب كثيرًا لكي لا ينتبه له والده وهو يعد الدقائق لكي يخرج مع تلك الأخصائية التي

وعدته بأنه سيقابل والدته في أقرب وقت ممكن إذا ذهب معها إلى دار الأطفال، فأسرع لكي يأخذ ملابسه وملابس أخته الرضيعة، لكن الأخصائية منعته، وهي تستعجله خوفًا من مقاومة والده لهم مجددًا، وهي تقول له: لا أهمية للملابس يا فيصل فهناك كل شيء تحتاج إليه أنت وأختك!

ـ وتنهد تنهيدة حارقة وقال: «أخيرًا» سأذهب إلى أمي الحبيبة!

قالها «فيصل» عندما ركب سيارة فريق حماية الأطفال من العنف وبجانبه الأخصائية «سارة» التي ضحكت سعيدة، وهي تحمل تلك الرضيعة بين يديها، وبجانبها فيصل يبتسم شاكرًا لها حضورها، وأول سؤال وجهه لها: هل ستأتي أمي لتأخذنا؟

قالت سارة: أكيد سأتصل بها فورًا عند وصولنا إلى المكتب، وسترى كم هي تحبك ومشتاقة إليك.

بعد وصول الفريق إلى المكتب بساعة، تم الاتصال بالأم التي انهارت ببكاء هستيري لمجرد سماعها صوت ابنها الغالي فيصل وهو يسألها: أمي أين أنت لم تسألي عنا طوال الأيام الماضية؟.

وخلال ساعة وصلت والدة فيصل إلى مكتب حماية الأطفال بعدما أخذت العنوان من الأخصائية «سارة» وجاءت مسرعة تبحث عن طفليها في المكاتب حتى وصلت إلى المكتب الذي جلس فيه فيصل مع أخته الصغيرة، وكان يومًا مؤلمًا بلقاء الأم المحرومة من طفليها، لقاء لوعة الحرمان القسري، فتمسكت الأم بطفليها ورفضت الخروج

من المكتب إلا بهما، لكن صعقت عندما اعتذرت لها الأخصائية بأنهم لا يستطيعون تسليمها طفليها إلا بموافقة الجهات القضائية حتى وإن كانت والدتهما!

لذلك لم تجد الأم مقابل هذه الإجراءات الروتينية الظالمة لأمومتها إلا البقاء مع طفليها والجلوس معهما في دار الأطفال حتى ترى ماذا سيكون رأي القضاء بحق أمومتها لطفلين صغيرين لا حول لهما ولا قوة!

لكن مضت أيام قليلة، كانت أم فيصل تنتظر خلالها رأي القضاء بطلبها حضانة طفليها لحاجتهما الماسة إليها، وكانت طوال جلوسها معهما في الدار لا تفارقهما ولو للحظات خوفًا من خسارتهما مرة ثانية بدون رضا منها.

لكن كانت كلمة الحق فوق كل شيء، فوق تسلط الزوج، وقسوة الأب، وصدر القرار بأنها أحق بهما من والدهما، ومن كل جهات العالم المعنية بشؤون الأطفال، فكان يومًا لا ينسى لأم فيصل وهي تضمه بقوة ودموعها تملأ وجهه الصغير وهي تقول له «سامحني.. والدك هو السبب».

التفسير النفسي

قد تشارك الأم في تعذيب أطفالها عندما تهرب عنهم إلى عالم آخر خاص بها كمثل: الارتباط بزوج آخر وتركهم لزوجة الأب، أو أن تنشغل عنهم بخصوصياتها التي تلغي معها أمومتها الحقيقية، لكن أم فيصل شاركت في تعذيب طفليها بدون قصد منها، وكانت تحاول العودة لأخذهما

وهي أكثر قوة وثباتًا، لكنها لم تستطع خوفًا من عدوانية والدهما الذي سلب منها حتى القدرة على اتخاذ القرار ومواجهته عند الأزمات في علاقتهما الأسرية القاسية، ولم تجد أيضًا من أسرتها المساندة لكي تقف أمام جبروت زوجها وتطلب منه الطلاق وحضانة طفليها، لذلك أصبحت وحيدة وخائفة وقلقة، ولم تكن تعلم بأن هناك جهات من الممكن الاتصال بها لبث شكواها لها لأن زوجها قد منعها من التواصل مع العالم الخارجي، فأصبحت تخاف من أي مبادرة تسترجع حقوقها الضائعة.

شاركت والدة فيصل في عذابه لأيام لأنها لم تكن تعلم كيف تدافع عن حقوقها، وشاركت في عذابه لسنوات لأنها عاشت مع زوج وأب عدواني ساهمت بطيبتها، وتنازلها عن تعذيبه لها، لأن يصبح متسيدًا لا يهمه إلا سعادته فقط.

الفصل العاشر

ضياع طفولة «وفاء»

لم تكن نهاية حياة والدة «وفاء» مع والدها غريبة بعد سنوات من الإهمال والأذى النفسي والجسدي مع أطفالها الأربعة، بل كانت نهاية طبيعية لزوجة عاشت تحت سقف مهدد بالسقوط في أدنى لحظة غضب، وبيت مهدد بالاشتعال عند أبسط اعتراض أو سؤال يحمل معنى الاستفهام البسيط «لماذا تعاملني هكذا؟ وأنت زوجي الذي تزوجني برغبته ورضاه، وبمباركة من عائلتنا، ووالد أطفالي الذين كنت راغبًا في إنجابهم، ماذا جرى لك لماذا تعاملنا بقسوة؟»

كانت هذه الأسئلة تستفز والد «وفاء» كثيرًا، وبدلًا من ضبط أعصابه وتصرفاته كان يزيد من عنفه مع زوجته، ويطردها من أمامه، ويفهمها باستمرار بأنه ليس من حقها سؤاله عندما يغضب أو يضرب أو يصرخ أو يكسّر أي شيء أمامه «فهو حر» لأنه صاحب البيت، ومالك حياتهم، وولي أمرهم! وهو حر في تصرفاته، «واللي ما يعجبه.. الباب واسع، والشارع موجود».

آه من هذه الكلمة التي طالما يكررها والد «وفاء» لوالدتها كلما احتد النقاش بينهما، ولا تجد والدتها إجابة أمام هذا الطرد العلني والمستمر لها أمام أطفالها إلا الصمت، لأنها تعلم بأنه سينفذ تهديده بحرمانها من أطفالها، وخوفها أكثر من وضعها بعد الطلاق لأنها لا تملك أي دخل لكي تصرف على نفسها وعلى أطفالها، فهو دائمًا يستهزئ بها، لأنها لم تكمل تعليمها، واكتفت بالمرحلة المتوسطة، عندما وافقت على الزواج منه، ولم تستطع إكمال دراستها مع مسؤوليات المنزل، وواجباتها كزوجة أثقلتها جسديًا ونفسيًا، ثم أمومتها التي لم تتوقف إلا خلال أشهر الرضاعة، ثم تدخل في مرحلة أخرى من متاعب الحمل التي رمت بها في عالم من النسيان لأنوثتها وإنسانيتها وكرامتها!

يا إلهي.. كانت سنوات جاحدة من زوج جاحد..

كانت حياة قاسية مع زوج ظالم..

وحياة حزينة مع زوج أناني..

طالما تكرر والدة «وفاء» هذه العبارات القاسية على قلبها كلما تذكرت نهايتها مع والد وفاء!

لماذا تغير إلى الأسوأ؟ لماذا يكرهني ويكره أطفاله المساكين؟ ليس من الطبيعي تغيره المفاجئ ضدنا هكذا بدون سبب؟ لم تستطع والدة وفاء التوصل إلى إجابة مقنعة إلا بأن هناك امرأة في حياته؟

هذا هو السبب الوحيد الذي آمنت به، وتأكدت منه عندما لاحظت سهره لساعات طويلة خارج البيت، ورائحة

العطر التي تفوح من ملابسه وإن كان عطرًا كريهًا مختلطًا برائحة سجائر نتنة، لكن الأمر بلا شك وراءه امرأة داهية استطاعت أن تقلب موازينه للأسوأ ضدنا!

- في تلك الليلة المؤلمة لم تتوقع والدة وفاء أن يتهجم عليها زوجها بالركل والسب والشتم عندما سألته وهو يدخل المنزل في ساعة متأخرة من الليل، بل إنها ساعة الفجر تعلن البدء، بكل ضيق: هل عدت من عند زوجتك الثانية؟

كان سؤالها كالقنبلة التي انفجرت أمامها! فانفجر في وجهها صراخًا وضربًا واستنكارًا لسؤالها، ومن تكون حتى تجرؤ وتسأله؟ وما هذا الاتهام الشنيع الذي تتهمه به «زوجة ثانية» وما صفتها حتى تتدخل في شؤونه الخاصة؟ لم تستطع والدة وفاء أن تنقذ نفسها من بين يديه، لم تستطع الهروب خارج غرفتها التي أصبح عاليها سافلها إلا بعدما استطاعت التخلص من يديه وهو ممسك بشعرها المتهتك من جذبه، إذ تعثر أمامها ساقطًا لتتجه مسرعة نحو باب غرفتها، ولتختبئ في غرفة أطفالها الذين أنهكهم الصراخ والخوف مما يحدث لوالدتهم!

هذه الليلة تتكرر بدون غرابة في منزل «وفاء» الحزينة من أيام كئيبة تعيشها في منزل تخاف من العودة إليه بعد المدرسة حتى لا تسمع صراخ والدتها، وهي مضروبة يوميًا من والدها الذي بدأت تكرهه كثيرًا، لكن هذه الليلة كان والدها كالثور الهائج لأنه لم يهدأ طوال الليل بتهديداته لوالدتها بأنه سيقتلها لا محالة لأنها دائمًا تتدخل في شؤونه

الخاصة، وتبحث عن غضبه بالرغم من تحذيراته المتكررة لها بأنها لا تملك الحق في فتح فمها لسؤاله عن أي شيء إلا بموافقته أولًا!

لم تنسَ وفاء منظر والدتها، وهي تنام بين أجسادهم الضعيفة على أرضية غرفتهم الصغيرة، وهي ترتجف من الخوف والدموع تتسابق على خديها الشاحبين، وكلماتها الحزينة التي تندب فيها حظها مع زوج ظالم، وحظها الأسود مع أسرة يكرهون أن تعود ابنتهم المتزوجة إليهم مهما كانت الأسباب، فهم في مجتمع يقدس احترام الزوج وخصوصياته وإن كان يشرب المسكرات، وإن كان مقصرًا بحق أطفاله وزوجته، فالمهم أنه رجل «نشمي» يقف مع رجال قبيلته عند الحاجة إليه، أما عن تصرفاته مع نسائه فهذا لا يعني لهم شيئًا، حتى لو كانت «كبشًا» بين يديه، المهم يسترها من شبح العنوسة، ويحميها من الطلاق، وأنها تتشرف بأن أصبحت زوجة وأمًا بسبب زواجه منها! لذلك تحملت والدة «وفاء» الكثير من أجل أطفالها، وخوفًا من والدها وإخوتها الذكور الذين أطلقوا عباراتهم النارية في وجهها عندما اشتكت لهم من سوء تصرفاته حيث قال لها والدها: لو ترجعين لنا، لا نشوف عيالك معك! هو والدهم وأحق بهم منك!.

ولم تنسَ «وفاء» أنها بدأت تكبر، وبلغت الثانية عشرة ولم يشعر بها أحد في البيت، لا والدتها المشغولة بهمومها، وصد هجمات والدها عنها، ولا والدها المهووس بسهره خارج البيت، ونومه الطويل في غرفة

الضيوف، وانعزاله عنهم، فكانت وفاء في حيرة من أمر التغيرات الجسمية التي داهمت طفولتها فجأة بدون مقدمات مما جعلها تنعزل أكثر عن والدتها التي لا تشعر بآلام ابنتها الصغيرة، لأن آلامها أكبر، وهمومها أقوى من الانتباه لبلوغ ابنتها الصغيرة!.

لكن آلام «وفاء» النفسية لا توازي آلامها الجسدية، لأن مرشدتها الطلابية خففت من آلام وفاء الجسدية عندما قالت لها: افرحي وفاء أنت كبرت، بالإمكان الاعتماد عليك، لكن انتبهي لصحتك وأخبري والدتك بأنك دخلت سن البلوغ حتى تهتم بتغذيتك أكثر، وسأكتب لها خطابًا بذلك!

لكن الصغيرة «وفاء» شهقت بسرعة وقالت: لا يا أستاذة، لا تخبري أمي إنها مشغولة بأمور كثيرة، وستغضب مني إذا علمت بأنني أخبرتك قبلها! ووعدت وفاء مرشدتها بأنها ستخبر والدتها بوضعها الجديد، وستهتم بنظافتها وصحتها أكثر.

وطالما حدثت وفاء نفسها: يا رب.. متى أكبر وأتخرج من الجامعة، وأساعد أمي المسكينة ونعيش لوحدنا في منزل جميل مثل منزل صديقتي «وجدان» التي يحبها والدها كثيرًا، ولا يضرب والدتها، ولا تخاف منه مثل خوفي من والدي! هذه الأحلام الصغيرة التي تؤلم وفاء لم يشعر بها إلا معلمتها التي أزعجها منظر طالبتها الصغيرة في الفصل دون الطالبات الأخريات، اللاتي يلعبن ويضحكن ويمرحن كثيرًا، ويأكلن بشهية، وروح البراءة تشع من

وجوههن، إلا وفاء خاصة عندما اقتربت منها لحظة تصحيحها كراستها غير المرتبة فانتبهت لها المعلمة فسألتها: ما هذا السواد الذي بيدك يا وفاء؟ فحاولت وفاء مسرعة وضع يدها الأخرى على يدها المصابة بحرق سطحي على كف يدها الصغيرة والنحيلة فقالت: كنت أعدّ الشاي لوالدي فانسكب على يدي!

هذا المنظر الذي آلم معلمة وفاء دفعها لكي تركز على هذه الطالبة الصغيرة أكثر، وتسأل المرشدة الطلابية عن ظروفها الأسرية، وطلبت استدعاء والدتها كثيرًا لكنها لم تحضر، واتصلت بها من مكتب المديرة لكنها لم تستجب للملاحظات التي توجه إليها عن ابنتها، حيث لا ترد إلا بإجابة واحدة: ماذا أفعل، والدها هو السبب!

لقد أرهق معلمة وفاء تسجيل الملاحظات عن هذه الطالبة المسكينة، ولم تجد مساعدة تشفي آلامها إلا بشراء بعض الوجبات لها، أو هدايا بسيطة إذا شاركت في مسابقات المدرسة، ولكن بمرور الأيام بدأت تتغيب وفاء عن المدرسة لأيام، ثم تعود إلى مدرستها مرهقة تغالب عينيها الصغيرتين الذابلتين من قلة النوم، وأكثر ما لفت نظر معلمة وفاء تلك الهالات السوداء حول عيني وفاء! يا إلهي ما هذه الهالات حول عيني فتاة صغيرة؟

وكان سؤال المعلمة للطالبة الصغيرة الخائفة: لماذا هذا الغياب يا وفاء؟

سكتت وفاء كثيرًا قبل أن تجيب، وترددت فلم تجب إلا بكلمتين «كنت تعبانة»!

لكن تعب وفاء يختلف عن التعب العادي، كلمات قالتها المعلمة للمرشدة وهي تتألم!

لا شك أن هناك أمرًا آخر لابد من كشفه، ما هو؟ لابد أن نشد أيدينا معًا ونخضع وفاء للكشف الطبي في الوحدة المدرسية، فهي في انحدار صحي واضح!

واتفقتا بعد العديد من الملاحظات الفصلية والنفسية والصحية التي سجلتها المعلمة والمرشدة، على التوجه بكل شجاعة وثبات إلى مكتب المديرة لكي يناقشاها في وضع وفاء، والموافقة على طلبهما بتحويلها إلى الفحص الطبي في الوحدة المدرسية بدون علم والدها.

لم يكن إقناع مديرة المدرسة أمرًا سهلًا، لأنها ستقوم بما يخالف النظام وهو تحويل طالبة للفحص الطبي بدون علم ولي أمرها!

لكن المرشدة تمسكت بموقفها عندما أقنعت المديرة بعبارتها الشجاعة: «نحن مسؤولات أمام الله سبحانه وأمام أنفسنا، وأمام المهنة العظيمة التي كلفنا بها، بأن نتحقق من وضع هذه الطالبة التي لم تتعاون معنا أسرتها نهائيًا لكي نعرف ماذا ألَمَّ بها من تغيرات أساءت إلى صحتها ونفسيتها ودراستها!».

فكانت خطوة جريئة وشجاعة عندما اصطحبت المرشدة الطلابية «وفاء» إلى الوحدة الصحية المدرسية، بل تعهدت بأن الأمر سيكون على مسؤوليتها مهما كانت النتائج، لأن هدفها هو مساعدة الطالبة ومعرفة ما بها، وصرف العلاج المناسب لها.

لم تمانع «وفاء» اصطحاب المرشدة لها إلى الوحدة الصحية لأنها لا تعلم ماذا سيكون بعد ذلك، وما هي المصيبة التي ستكتشفها مرشدتها، بل ذهبت بطوعها واختيارها لأنها تريد من يساعدها ويقف بجانبها كطفلة شاردة ومرهقة، بل أكملت الفحص الطبي كله بهدوء، وأجابت عن أسئلة الطبيبة بوضوح، وتجاوبت مع الكشف النفسي الذي لم تستغربه بل ساعدها لكي تتحدث عن أحزانها، وترسم بيتها الكئيب وإخوتها الصغار المرعوبين من يد طويلة تلوح يمينًا ويسارًا، وفم كبير يصرخ، وامرأة ذات شعر منفوش وملابس قذرة تنظر إليها نظرات مرعبة!

«إنها لوحة كئيبة ومؤلمة، لابد أن لها أبعادًا نفسية في تحليلها، الصغيرة بحاجة إلى مساعدة، لكن بعد انتهاء فحوصاتها الطبية سأتابعها وأزودك بالبرنامج النفسي المناسب لحالتها». كانت عبارة من ضمن الحوار الذي دار بين الأخصائية النفسية بالوحدة والمرشدة الطلابية التي رافقت «وفاء».

عادت «وفاء» إلى المدرسة بعد الانتهاء من الفحوصات، وأشرف اليوم الدراسي على الانتهاء، فأمسكت بها معلمتها ومديرة المدرسة في مكتبها تحذرانها بلطف وهدوء بأن لا يعلم والدها بذهابها إلى الوحدة حتى تنتهي فحوصاتها لأن هدفهما علاجها، وحتى لا يغضب والدها منها ويحرمها من العودة إلى المدرسة في اليوم التالي!

تمسكت وفاء بالنصيحة والتحذير ولم تخبر والدتها

بما حدث لها، ولا عن سؤال الطبيبة لها «ماذا تأكلين كل يوم؟ ومتى تنامين؟ وهل تشربين الحليب كل يوم؟ ومتى شعرت بآلام الدورة؟» إلى غير ذلك من الأسئلة التي لو أخبرت والدتها عنها، فستخبر هي توًا والدها الذي لن يرحمها بخروجها من المدرسة إلى مكان آخر بدون علمه حتى لو كان مع مرشدة المدرسة!

مرت الأيام، وحالة «وفاء» الصحية في تدهور، وكان ذهابها إلى المجلس الذي ينام فيه والدها يتكرر بدون وجوده، ووالدتها لا تعلم ماذا تفعل ابنتها الصغيرة في ذهابها وعودتها السريعة من مجلس والدها الخاص الذي لا تجرؤ على الذهاب إليه لا في حضوره ولا في غيابه لذلك الرعب الذي يسيطر عليها لمجرد أن ذلك القسم من المنزل يخصه فقط لا غير!

لكن الذي بدأ يؤلم الأم المسكينة أن ابنتها الصغيرة تنام كثيرًا، والصداع لا يفارقها، والشحوب يسيطر على وجهها الصغير، وشهيتها بدأت تقل، وأصبحت تتبول في ملابسها، لكنها لم تفكر لماذا؟ بل أخذت في تأنيبها وضربها بشدة وتهديدها بأنها ستخبر والدها لكي يؤدبها! هذا التهديد أرعب وفاء كثيرًا ولم تجد حيلة لها في اليوم الثاني عند انتهاء يومها الدراسي إلا أن ترفض العودة من المدرسة، وتتمسك بالجلوس في فصلها وهي تبكي بحرقة، ولم تستطع حينئذ لا المعلمة ولا مديرة المدرسة ولا مرشدتها القريبة منها أن يعرفن منها السبب في رفضها العودة إلى المنزل إلا بعد ساعات طويلة آلمتهن ليكتشفن أن

الطالبة تعيش في عذاب أسري دائم مع والدتها التي لا حيلة لها لكي تنتشل أطفالها من أب قاس ومدمن المخدرات التي أفقدته قدرته على السيطرة على تصرفاته وتحمله لحياته الأسرية.

ولم تجد مديرة المدرسة أمام خوف «وفاء» الملحوظ من العودة إلى أسرتها إلا الاتصال باللجنة المسؤولة عن حماية الأطفال والنساء من العنف الواقع عليهم لكي تخبرهم عن وضع الطفلة المسكينة التي رفضت الخروج مع والدها الذي حضر بناء على اتصال من المديرة، بل أخذت في البكاء الهستيري، وظلت تتشبث بعباءة معلمتها خوفًا من خروجها إلى منزلها وتركها لوحدها بالمدرسة، وزاد خوفها أكثر بعد حضور والدها وخوفها من اكتشاف أمرها وتناولها لأدويته التي يخبئها في دولاب غرفة الضيوف لأنه دائمًا يردد أمامهم بأنها أدوية تخفف من آلامه وتساعده على النوم المريح «وهي تتألم من بطنها، ولا تنام نومًا مريحًا منذ بلوغها»! وتلك الحبوب ساعدتها على النوم الطويل لكن آلام الصداع لا تفارقها منذ تناولها لأدوية والدها ذات الألوان الغريبة، فتضطر أن تأخذ منها خفية عن والدتها التي لا تعلم عن أمر ابنتها شيئًا!

لذلك لم يكن يومًا عاديًا بالنسبة لوالد «وفاء» ولوالدتها، عندما تم تسليم ابنتهما إلى جهة أمنية لتسلمها بدورها إلى دار حماية الأطفال حتى يتم التحقيق في أسباب رفضها العودة إلى أسرتها، خاصة بعد الشكوك التي راودت مديرة المدرسة بأن الطالبة تعيش وضعًا غير مطمئن ويحتاج

إلى التحقيق في شأن والدها الذي ارتجفت منه رعبًا عندما رأته أمام بوابة المدرسة محاولًا أخذها بالقوة من بين أيدي مسؤولي الأمن!

«يا إلهي.. لقد ضاعت وفاء فعلًا..» عبارة مؤلمة نطقتها مديرة المدرسة عندما اتصلت بها طبيبة الوحدة الصحية في اليوم التالي لتخبرها بأن نتائج تحليل دم وفاء مشكوك فيه، وتحتاج إلى تحويل لمستشفى متخصص في تحليل آثار الحبوب المخدرة في الدم!

إننا بحاجة للتأكد لحمايتها مما هي فيه. «الطبيبة تحاول إقناع المديرة»!

وجاءت إجابة المديرة متألمة: لكن.. كيف بالله عليكم أن تتأكدوا، هذه فتاة صغيرة كيف تتعاطى حبوبًا مخدرة؟

الطبيبة تجيبها: لا نعلم.. لكنه إجراء يحتاج إلى خطابات سرية عليكم تنفيذها، ولابد من إحالة أسرتها على التحقيق، لو جاءت نتائجها مؤكدة لشكوكنا.

لكن المديرة طمأنت الطبيبة بقولها: أطمئنك أن الصغيرة الآن تحت متابعة جهات رسمية، لذا لن نجد صعوبة في متابعة فحوصاتها ولله الحمد.

الطبيبة: الحمد لله أننا سنساعدها عاجلًا قبل استفحال وضعها، إنها ضحية بلا شك.

التفسير النفسي

إن الخوف حالة شعورية وجدانية يصاحبها انفعال نفسي وبدني تنتاب الطفل عندما يتسبب مؤثر خارجي في

إحساسه بالخطر، وما أصاب «وفاء» من خوف لا يقل درجة عن خوف الطائر الذي يحلق بعيدًا عندما يدرك بغريزته إنذارًا يهدد حياته! وخوف وفاء كان أكثر إيلامًا لأنه نبع من داخلها مما أدى إلى عدم إحساسها بالأمان وسط أسرتها الصغيرة! وظهرت أعراض الخوف على «وفاء» مثل شحوب الوجه، والشعور بالدوخة، وفقدان الشهية، والأرق، والشعور بصعوبة خروج الكلمات، الاستعداد للبكاء عندما يبادرها أحد بالسؤال عن حالتها! بل الاستعداد للهرب الذي نفذته يوم سيطر عليها الرعب من العودة إلى منزلها الحزين! لذلك دخلت «وفاء» دائرة من الحيرة والضياع، وكان ذلك نتاجًا طبيعيًا لإدمان أب، وضعف أمّ أمام الظروف التي عاشتها مع زوج قاسٍ لم يشغله وضع أسرته، بقدر انشغاله بإشباع إدمانه الحبوب المخدرة التي تعاطاها بعد خسارته لجميع أمواله في سوق الأسهم التي دخلها رغبة في ثراء سريع، لكن بدون خبرة أو مهارة تحميه من الخسارة التي لم يسانده بعدها أي من أصدقائه الذين نصحوه بالمتاجرة بالأسهم، وتخلوا عنه سريعًا عندما احتاج إلى مساندتهم! لذلك فإن استمرار الظروف السيئة التي عاشها والد «وفاء» ساهم في استمرار حالة الخوف التي سيطرت عليها لشهور طويلة! لذلك فإن ضياع وفاء نتيجة طبيعية أيضًا لإهمال أم ضعيفة وسلبية لا تجد أي مساندة لها لكي تحمي نفسها وأطفالها من تغير زوجها المفاجئ، الذي انقلب ضدها لكي تكون متنفسًا لمشاعره السلبية بكل ما تحمله من درجات الفشل والنقص ضد ذاته، وضدها! ولقد كانت حالة ضياع وفاء تعبر عن

صورة متكررة لطفولة ضائعة في وسط أسري مفكك قائم على «الأنا الأنانية» لوالدين لم يدركا بأن نتيجة علاقتهما الزوجية والأسرية الفاشلة ستمتد إلى أطفالهما، ولم يدركا بأن هذا الفشل سيتجاوز حدوده الطبيعية إلى داخل جسد وعقل ابنتهما الصغيرة التي ضاعت من أيديهما، والتي دفعها خوفها من البقاء لدى أبوين أساءا إلى حمايتها، وأهدرا حقها في العيش بأمان وسعادة في ظلهما إلى البحث عن أيد أمينة تنقذها من ضياعها بإذن الله.

متى تحتاج المرأة إلى الحماية؟

لكي تحمي نفسك من العيش لسنوات طويلة تحت ضغوط عصيبة لابد أن تدركي متى تلجئين إلى الجهات الحقوقية من أجل الاستشارة، أو متى تلجئين إلى الجهات الأمنية للتدخل لحمايتك وحماية أطفالك من الأذى، ومتى تلجئين إلى الجهات القضائية للدفاع عن حقوقك الشرعية؟ وأن تعلمي بأن مشكلتك لن تنتهي إلا بمبادرة منك، حيث أنها لن تتلاشى من تلقاء نفسها إذا ما تطورت للأسوأ بإهمالك لها. لكن لابد أن تعلمي بأن هذه الخطوات تحتاج إلى قناعة قوية تنبع من داخلك، وبأنك تستطيعين الدفاع عن كرامتك وإنسانيتك، وأنك لا تخشين مواجهة المعتدي لكي تحصلي على حقوقك التي من أهمها «العيش بأمان وسلام».

وسأقدم قائمة من السلوكيات العدوانية التي قد تواجهينها وتكون نذيرًا بالخطر من حولك، وتحتاجين فيها إلى إعداد خطتك لحماية نفسك قبل اللجوء إلى الجهات الرسمية لمساعدتك والتدخل لحمايتك.

1 ـ تهديدك باستمرار بالعنف، ومنعك من الخروج إلى الدراسة أو العمل أو الذهاب لرؤية أفراد أسرتك إذا

كنت متزوجة، أو منعك من العلاج لو تعرضت لأذى أو مرض.

2 ـ استخدام عبارات السخرية والتقليل من شأنك واحتقارك كامرأة، وخاصة أمام الآخرين أو في المناسبات العامة.

3 ـ أخذ راتبك بدون رضاك واستخدام القوة معك للاستجابة لطلباته المالية.

4 ـ أن يحمّلك جميع مسؤوليات البيت والأطفال والأسرة بدون مساعدة منه.

5 ـ يقوم بحبسك في الغرفة ويمنع عنك الطعام والشراب في حالة غضبه الذي قد يستمر لأيام، ويلجأ إلى قذف الأشياء وتكسيرها أمامك أو فوق جسدك.

6 ـ قد يلجأ إلى ضربك، أو ركلك، أو لكمك، أو شد يدك وتقطيع شعرك، وتقييدك، وركلك بقوته كلها، وعضك، واستخدام أدوات حادة لجرحك أو حرقك، أو خنقك، أو إجبارك على ممارسة الجنس.

7 ـ أن يستخدم الأسلحة بتخويفك وتهديدك كلما غضب منك أو احتاج منك إلى شيء.

8 ـ ينفق دخله الشهري على الأصدقاء والسهر وشرب

المسكرات وتعاطي المخدرات، ويرفض نفقتها على احتياجات أسرته.

9 - يكون مزاجه متقلبًا مابين الصمت والهدوء إلى الغضب والصراخ بدون أسباب واضحة.

10 - يسعى للسيطرة على حياتك ويجعلك تعيشين وهمًا بأنك كل شيء في حياته، ولو تبتعدين عنه فإنه سيعيش التعاسة، ولا يرغب في تدخل أحد في حياتكما أو أخذ مشورته لنصحه بعدم تعنيفك!

- إذا كنت تتعرضين لما سبق فأنت تعانين مشكلة، وخاصة إذا تكرر معك أكثر من بند من بنود القائمة، حتى لو كان ذلك على فترات متباعدة. أما إذا كنت تتعرضين لما ورد في البند رقم (6)، فإن عليك طلب العون عاجلًا ومغادرة المكان الذي تعيشين فيه إلى مكان آمن ولا تنسي أطفالك الذين هم بأمس الحاجة إلى مساعدتك. وعليك إخبار أسرتك وأصدقائك ورجال الأمن بما تتعرضين له باستمرار حتى لا تساهمي في استفحال الاعتداء عليك واستمراره في الخفاء.

- عليك التأكد بأن المعتدي عندما يكون مريضًا نفسيًا أو مدمنًا، فإنه لن يتغير بين يوم وليلة إذا وعدك بأنه لن يعتدي عليك مرة أخرى، بل إنه يضع لك

كمينًا آخر يقوم من خلاله بتعذيبك أكثر لأنك فكرت في التخلي عنه وهو في أمس الحاجة إليك «لأنه مريض أو مدمن».

- إن المريض النفسي، أو المدمن يحتاج إلى مدة يقررها الطبيب المعالج لحالته، وذلك لكي يخضع لعلاج يساعد على تخلصه من عدوانيته تجاه نفسه وتجاه أسرته، لأن العنف ليس وقتيًا أو طارئًا بل يرتبط بمسببات كثيرة تحتاج إلى العلاج النفسي والدوائي والأسري.

- ولا ننسَ أن الطرف المعتدي لابد من مساعدته بقدر استطاعتنا، لأن الشخص الطبيعي لايتعامل مع أقرب الناس له بالقوة المؤذية لجسده أو نفسيته أو يتركه تحت الخطر، وأن الشخص الطبيعي لابد أنه يحترم دينه قبل كل شيء ويلتزم من خلاله بتوجيهاته السمحة، ويحترم نظام البلد الذي يعيش فيه، ويحترم الرباط الشرعي الذي ارتبط به «عقد الزواج» وأن عليه واجبات عظيمة مثل ما له من حقوق عظيمة من أجل نجاح هذا الرباط المقدس واستمراره.

الجهات الحقوقية السعودية

تحت هذا العنوان الهام رأيت أهمية أن أقول لكل إنسان مظلوم بأنه يعيش تحت مظلة بلد إسلامي لايرضى بالظلم لمواطنيه لأن شريعته الإسلام، وهي شريعة سمحة ترفض ظلم المسلم لأخيه المسلم، وتنادي بالرحمة في التعامل مع الضعيفين «النساء والأطفال». ولقد صان الإسلام عرض المرأة وشرفها، وشرّع عقوبة رادعة لمن يسيء إليها لأن المرأة إما أن تكون أمًّا أو بنتًا أو زوجة أو أختًا، ومن تكريم الإسلام لها أن القرآن الكريم تحدث عنها في أكثر من عشر سور، ومن تلك السور على وجه الخصوص (البقرة، النساء، المائدة، النور، الأحزاب، المجادلة، الممتحنة، التحريم) وذلك لشأنها العظيم في بناء حياة زوجية مستقرة، والإعداد لأجيال قوية تواجه التحديات التي حولها، لذلك الكثير من الآيات القرآنية ومنها ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: آية 13] والأحاديث النبوية الشريفة توصي بالتراحم والتواد بين الأزواج، وتوصي باللين والرفق والعدل في تربية الأبناء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [سورة النحل: آية 90] وذلك لأثرها الطيب في حياتهم وعلاقتهم بوالديهم، وعلاقتهم بعضهم ببعض،

وذلك لقوله عليه الصلاة والسلام أيضًا: «الود يتوارث والعداوة كذلك».

وعندما انضمت المملكة العربية السعودية إلى اتفاقيات حقوق الإنسان الرئيسية، لم تكن بنود تلك الاتفاقيات غريبة عن نظام الحكم السعودي السائد في الوقت الحالي، لأنها تنسجم في كثير من بنودها التي تطالب بحماية حقوق الضعفاء مع النظام السائد للحكم السعودي الذي تنص مادته «26» على التزام المملكة بحماية حقوق الإنسان.

لذلك فإن التزامات المملكة بتلك الحقوق استندت إلى ما تشتمل عليه الشريعة الإسلامية من كفالة شاملة للحقوق الأساسية للإنسان وإلى الاتفاقيات الدولية التي انضمت إليها وإلى الأنظمة الداخلية، ومنها اتفاقيات دولية معنية بموضوعات حقوق الإنسان وهي نوعان:.

1 ـ **اتفاقيات تتعلق بحقوق الإنسان بصفة عامة كالإعلان العالمي لحقوق الإنسان،** حيث صادقت المملكة على إعلان حقوق الإنسان في الإسلام الصادر عن منظمة المؤتمر الإسلامي بتاريخ 4 آب/ أغسطس 1990م والمعروف بإعلان القاهرة.

2 ـ **اتفاقيات تتعلق بنوع محدد من الحقوق أو حقوق فئة اجتماعية معينة كالاتفاقية الخاصة بالقضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة، واتفاقية**

حقوق الطفل، التي انضمت إليها المملكة في (شباط/ فبراير 1996م) مع تحفظها على المواد التي تتعارض مع أحكام الشريعة الإسلامية، وكذلك انضمامها إلى ميثاق حقوق الطفل في الإسلام.

- ومن منطلق حماية كرامة الإنسان حيث نصّ القرآن الكريم على تكريمه وحماية حقوقه لقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾، فقد أنشأت المملكة العربية السعودية العديد من الجهات الحقوقية المعنية بحماية حقوق الإنسان عامة ومنها حماية حقوق المرأة والطفل، كمثال:.

- **الإدارة العامة للحماية الاجتماعية**:ـ أنشئت بموجب قرار وزاري رقم 1/ 10771 وتاريخ 1/ 3/ 1425هـ التابعة لوزارة الشؤون الاجتماعية السعودية، وتهدف لاتخاذ التدابير اللازمة لحماية بعض أفراد المجتمع المعرضين للأذى ومنهم «المرأة والطفل» حماية قانونية واجتماعية وشرعية بما يحقق لهم الأمن الاجتماعي ويراعي مصالحهم.ولقد أطلقت الوزارة مركزًا للبلاغات عن حالات العنف الأسري تحت الرقم 1919، وموقعًا بعنوان حماية / www.hemayah.org.

- **الجمعية الوطنية لحقوق الإنسان**: ـ تأسست

كهيئة غير حكومية مستقلة في 19 آذار/ مارس 2004م لتعمل جنبًا إلى جنب مع الجهات الحكومية وغير الحكومية لتحقيق حماية وتعزيز حقوق الإنسان من خلال العديد من الأنشطة كرصد للتجاوزات والانتهاكات لحقوق الإنسان ومنها «قضايا العنف الأسري» تقع في منطقة الرياض. ت 2102223 / www.NSHRSA.org

- **هيئة حقوق الإنسان**: أنشئت بموجب قرار وزاري رقم «8» بتاريخ 8/ 8/ 1426هـ وترتبط مباشرة برئيس مجلس الوزراء «ملك المملكة العربية السعودية» وتهدف إلى حماية حقوق الإنسان وتعزيزها وفقًا لمعايير حقوق الإنسان الدولية في جميع المجالات، ونشر الوعي بها، والإسهام في ضمان تطبيق ذلك في ضوء أحكام الشريعة الإسلامية، وتكون هي الجهة الحكومية المختصة بإبداء الرأي والمشورة فيما يتعلق بمسائل حقوق الإنسان، يقع المبنى الرئيسي في منطقة الرياض / ت 4628839 ـ الفرع النسوي ت 4808745 www. Haq-Ksa.org.

- **برنامج الأمان الأسري**: ـ تم إنشاء برنامج الأمان الأسري بناء على الأمر السامي رقم 11471 وتاريخ 16/ 10/ 1426هـ كبرنامج وطني وذلك

تحت رعاية الشؤون الصحية بالحرس الوطني من أجل إرساء أسس مجتمع واع آمن تكون سلامة الأسرة أساسه ومحوره، ورسالة البرنامج مكافحة العنف الأسري وإساءة معاملة الأطفال / ت 2520088 تحويلة 40101 - 40123.

www.nfsp.org. sa.

- **جمعية حماية الأسرة**: - وهي أول جمعية من نوعها في المملكة العربية السعودية (في محافظة جدة) أنشئت بموجب الترخيص رقم 96087 وتاريخ 4/ 9/ 1428هـ كإحدى مؤسسات المجتمع المدني، لدعم ضحايا العنف الأسري بأنواعه والموجه ضد الأطفال والنساء وذلك بالتعاون مع الجهات المعنية بذلك. الرقم الموحد «800116066» والموقع www.7imayah.org، والبريد الالكتروني Info@7imayah.org.

- **جمعية مودة الخيرية لقضايا الطلاق**: تقوم الجمعية بعقد دورات متخصصة لتوعية المقبلين على الزواج، وتوعية المرأة والرجل بحقوقهما الشرعية والمدنية، وتقديم مساعدات اجتماعية ونفسية من قِبَل المختصين وتنظيم جلسات علاج جماعية، كما تقوم بالتنسيق مع الجهات التربوية المتخصصة بتأهيل الزوجين وإيجاد فرص عمل لهما، وتقديم استشارت

قانونية وخدمات مساندة لحل المشكلات وتذليل القضايا في الدوائر الحكومية، وإعداد برامج تأهيلية تدريبية لأفراد الأسرة. / www.mawaddah.org.sa Info@mawaddah.org.sa هاتف: +96614542301

- **جمعية التوعية والتأهيل الاجتماعي «واعي»:** أنشئت بقرار مجلس الوزراء رقم (107) وتاريخ 25 / 6 / 1410هـ، ومقرها الرياض ومنطقة خدماتها جميع مناطق المملكة العربية السعودية. وتنص رسالة الجمعية على «تنمية الوعي والسلوك الحضاري لدى الفرد والأسرة والمجتمع». هاتف + 0096614977001 / الموقع الالكتروني www.wa3i.org.sa

- **المركز الخيري للإرشاد الاجتماعي والاستشارات الأسرية:** تأسس المركز عام 1416هـ بموجب القرار السامي الكريم رقم 869/ 8 وتاريخ 2/ 9/ 1416هـ وهو من المؤسسات الاجتماعية الخاصة تحت مظلة الشؤون الاجتماعية ويحمل التصريح رقم (1) بمنطقة الرياض، و الهدف من إنشائه، إحداث التنمية الأسرية عن طريق تقديم الخدمات الاجتماعية الوقائية والعلاجية للمشكلات الأسرية هاتف المركز: 4884211 فاكس 4801725

- **مراكز الحماية الخاصة بالمستشفيات**: أنشأت وزارة الصحة السعودية مراكز للحماية في بعض مستشفياتها الرئيسية في مناطق المملكة المختلفة وذلك لكي يباشر منسوبوها أي حالة تراجع المستشفى بحثًا عن العلاج بسبب العنف الواقع عليها، وبالتعاون مع الجهات الأخرى ذات العلاقة.

- **اللجنة الوطنية لمكافحة المخدرات**: أنشئت بناء على توصية اللجنة العامة لمجلس الوزراء رقم «98» وتاريخ 7 / 2 / 1430هـ وهي لجنة ذات شخصية معنوية تتمتع بالاستقلال المادي والإداري ومركزها الرئيسي في مدينة الرياض ـ وتسعى اللجنة إلى الحد من انتشار المخدرات بين أفراد المجتمع، وتوفير برامج الدعم الذاتي للمتعافين من الإدمان على المخدرات وأسرهم. هاتف 01481830/ 014818020/ مركز استشارات الإدمان هاتف رقم 4818118..
www.ncnc.org.sa

- **مركز آسية للاستشارات التربوية والأسرية**: تم افتتاحه عام 1426هـ بمدينة الرياض بتصريح من وزارة التجارة رقم 81 وبتاريخ 28/ 11/ 1425هـ، يقدم خدمات استشارية تربوية ونفسية وشرعية وقانونية، ومن لجانه «لجنة حماية الأسرة».

الموقع

WWW.asyeh.com

هاتف: 920000192

- **مركز الأميرة العنود للإرشاد الأسري في الرياض - حائل**: يسعى المركز لتوفير الإرشاد النفسي والسلوكي والدعم للأسرة وذلك لتحقيق عدد من الهداف منها «**حماية الأسرة من التفكك**» وتقليل التوترات وذلك من خلال برامج مختلفة منها «**برنامج الحماية الاجتماعية**» الذي يسعى لمساعدة الأسرة والمرأة على وجه الخصوص لمواجهة التعدي والايذاء وتنسيق ايصال الشكاوي والاستغاثات للجهات المختصة.

وللتواصل:

هاتف: 4092559 ـ 01

فاكس: 4092589 ـ 01

Info@alanood.org.sa

باقات شكر متنوعة

- في الختام أقدم الشكر والتقدير لكل من وافقت على عرض مشكلتها في هذا الكتاب لكي تكون رسالة صادقة تحمل بين ثناياها التوجيه والتنبيه، ولكل من قد تتعرض لموقف طارئ ينذر بخطر قادم يحيط بحياتها ويهدد راحتها، وما عليها سوى إنقاذ نفسها وإنقاذ من حولها.
- أقدم الشكر والتقدير للصديقة العزيزة الدكتورة «عائشة بنت سفر الشهراني» أخصائية الأمراض النفسية والعصبية في وزارة الشؤون الاجتماعية بمنطقة الرياض بالسعودية على مراجعتها للمادة النفسية، ولتقديم الدعم والتشجيع النفسي الصادق لكثير من الحالات التي باشرت علاجهن في عيادتها النفسية.
- والشكر أيضًا للدكتور في علم النفس الجنائي والمعالج النفسي «أحمد بن سعيد الحريري» على مراجعته للمادة وتقديمه الرأي العلمي والنفسي المناسب لها.

والشكر أيضاً لجميع من دوّن في بحث أو مقالة أو دورة تدريبية للعاملين في مجال رعاية قضايا العنف الأسري، رأيه العلمي أو تحليلاته النفسية، أو توجيهاته الحقوقية لحماية المعنفات من النساء، أو المضطهدين من الأطفال، والتي تم الاستفادة منها في هذا الكتاب الذي لامس الهدف في تلك المراجعات السابقة، ولا أعتبره إلا إضافة بسيطة لأمنيات قلب صادق لمنع الأذى الواقع على المستضعفين في الأرض.

إن أي عمل تقوم به لنصرة مظلوم ، أو راحة محتاج ، أو مساعدة من لاحيلة له للوصول إلى مراده ، فهو عمل إنساني يبعث بداخلك الرضى والاطمئنان النفسي ، لكن عندما تقوم بمساعدة إنسان عاجز عن الدفاع عن حقه الذي شرّعه الله تعالى له ، وإنسان عاجز عن قول «لا» أمام سلسلة من العذابات التي يعيشها رغماً عنه وليس باختياره ، لأنه لايملك حق الرفض ، فإنك بلاشك تشعر بالسعادة لانتشالك غريقاً من وحل تشبث به لسنوات طويلة خوفاً من نتائج عجزه عن الدفاع عن حقوقه ، وعن كرامته التي تهدر تحت مظلة الطاعة والاحترام !

والحالات التي يتحدث عنها هذا الكتاب ماهي إلا نماذجاً بسيطة تعاملت معها خلال عملي مع حالات العنف الأسري في السنوات الستة السابقة ، ولا أهدف من عرضها لكم إلا التنبيه لمسيرة حياتنا كنساء مكلفات بحماية حقوقنا أولاً ، وحماية كرامتنا والدفاع عنها لكي نكون مؤهلات فعلاً أن نحمي الضعفاء من حولنا من أبناء أو أمهات ضعيفات ، أو أخوة عاجزين عن إثبات حقهم في حياة كريمة .

وما يحمله هذا الكتاب من نماذج ضعيفة أو قوية ماهو إلا رسالة صادقة أقدمها لكل من يريد معرفة كيف يدافع عن حقوقه ، ولمن لديه الرغبة أن ينير طريق المظلومين بقول كلمة الحق .

الكاتبة في سطور:

- دكتوراة في علم النفس .
- كاتبة في جريدة الجزيرة السعودية زاوية «روح الكلمة» .
- تتولى مهام عمل الحماية الاجتماعية في وزارة الشؤون الاجتماعية السعودية منذ عام ٢٠٠٤ م .
- عضو لجنة الحماية الاجتماعية بمنطقة الرياض .
- عضوة في جمعية النهضة النسائية الخيرية والتي تعتبر من الجمعيات الرائدة في الاهتمام بقضايا المرأة .
- عضوة في الجمعية السعودية للطب النفسي .
- لها ثلاث إصدارات في مجال فئة الأطفال ذوي الظروف الخاصة .
- Moudy_z@hotmail.com

نساء مضطهدات

موضي الزهراني





ISBN 978-614-404-154-3